
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب

مهرجان
محمود سامي البارودي

دار المعارف بمصر
القاهرة ١٩٥٨

مطبوعات

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب

٥

تقديم

فى مطلع هذا العام نشر مجلس الفنون والآداب — فيما نشر — كتاباً عن الشاعر الثائر حافظ إبراهيم ، تضمن الكلمات والقصائد والدراسات التى قيلت فى احتفال المجلس بذكراه فى يوليو ١٩٥٧ .

واليوم يقدم المجلس هذا الكتاب متضمناً أيضاً الكلمات والقصائد والأبحاث التى قيلت فى ذكرى الشاعر الثائر « محمود سامى البارودى » .

وهذا الكتاب — كسابقه — يحمل دلالات عميقة ومتنوعة ، أجدرها بالتنويه بيان هذه الغاية التى يستهدفها المجلس من تكريم الأدباء والفنانين جزاء ما قدموا لأمتهم من ذات أنفسهم وجهودهم . . وتقدير ما احتملوه ، وما قاموا به من تضحيات مشكورة لوطنهم ، وإشادة بآثار النبوغ التى خلفوها من بعدهم للأجيال الآتية قبساً هادياً من شعلة الفن الخالدة .

كان البارودى رائداً من روّاد الشعر العربى الحديث ، فهو الشاعر الذى استطاع فى بداية هذا العصر أن يهز الوجدان العربى بنبراته الصادقة ،

و بيانه الناصع ، وصياغته الفخمة . . واستطاع أن يبعث من جديد أصداء الشعر العربى من عصور الجزالة والقوة ، بعد أن نفض عن طريق الشعر غبار التقليد الذى تراكم على جوانبه فى عصور الضعف والركاكة والزخارف الزائفة .

و بكل ذلك كان البارودى جديراً بأن يكون أول الشعراء الذين يحتفل بذكراهم ، وكان الموعد المضروب لذلك هو ديسمبر عام ١٩٥٦ .

ثم كان الاعتداء الغاشم على بور سعيد الخالدة ، فتأجل الاحتفال به حتى خرجت مصر من معركتها الظافرة عزيزة أبية . . بعد أن ساندتها عواطف الأمة العربية ، واجتمعت حول رايتها قلوب الشعب العربى الخفاقة .

وكان أن وافق يوليو سنة ١٩٥٧ موعد ذكرى حافظ إبراهيم فجرى الاحتفال به ، حتى حان موعد الاحتفال بالبارودى ، فكان ذلك الذى يسجله هذا الكتاب .

لقد كان كتاب « حافظ إبراهيم » أوفر مادة من هذا الكتاب ، وسبب ذلك أن كتاب حافظ كان نتاج أسبوع كامل خصص لحافظ فى مدينة الإسكندرية .

أمّا هذا الكتاب فهو فصل من كتاب كبير ؛ لأن الاحتفال بالبارودى كان جزءًا من مؤتمر الأدباء العرب فى دورته الثالثة التى انعقدت بالقاهرة فى (٩ — ١٥ من ديسمبر سنة ١٩٥٧) . فهو بذلك موضوع يتمم موضوعات مؤتمر الأدباء العرب الذى كانت أبحاثه ومناقشاته صوراً متنوعة لمعان عميقة ، هى القومية العربية ، بعد أن حقق الرئيس جمال عبد الناصر حلم الأمة العربية الأكبر فى الحرية والسيادة فتشابكت أيديها ، وتعانقت عواطفها ومشاعرها — ثم تلاقت على صعيد القومية العربية فى مؤتمرها الحاشد لتكشف عن مظاهر القومية العربية وتأثيراتها فى الشعر والقصة والمقالة والنقد الأدبى ، وفيما توجبه هذه القومية على الأدباء العرب من واجبات للتعبير عن أمانى الشعوب العربية وإثراء وجدانها ، والنهوض بأمانة الرسالة ، رسالة الثقافة الإنسانية فى أضواء هذا الفجر الذى انبثق من القومية العربية ثم فيما توجبه هذه الغايات على الأمة العربية نحو أدبائها من رعاية وتقدير لجهودهم المخلصة .

وفى ختام هذا المهرجان العربى الكبير كان موكب البارودى ، فقطف الأدباء العرب من عواطفهم الحارة باقات من الزهر النضير لتكون تحية لذكراه .

ولقد تضمن الاحتفال بالبارودى أكثر من دلالة كلها عميقة المغزى .

ولو أن البارودى كان حياً لقرت عينه بهذا التكريم لأكثر من سبب ؛ أولها؛ هو اجتماع الأمة العربية حول ذكراه فى إصباح بعث شعوبها وتحررها والتقائها .

ثم كان مكان الاحتفال هو القاعة الذهبية بقصر المنيل ، والبارودى الذى ثار على الخائن « توفيق » صنيعة الاستعمار ، يجد أن الفلك قد دار دورته ، فإذا ذكراه تمجد فى هذا المكان بعد أن تطهر من آثار الاستعمار وصنائعه .. بعد أن عاد هذا المكان إلى الشعب ، وكان محرماً عليه من قبل.. عاد بعد أن« ذهب المتبوع والتبع» كما يقول البارودى ، و بعد أن زالوا

فما بكت الدنيا لفرقتهم ولا تعطلت الأعياد والجمع

ليس هذا فحسب ، بل لأن أمنية أخرى من أعز أمانى « البارودى » قد تحققت . فهنا فى « المنيل » كانت مغانى البارودى ومجالى صبواته . . التى طالما هزه الحنين الفياض إليها ، فى غربته فى المنفى بعيداً عن وطنه وقومه . . ومن هناك صعّد زفراته الحارة شعراً رقيقاً مؤثراً ، فكانت أمنيته أن يرى « روضة المنيل » كما يقول :

ليت شعرى متى أرى روضة المنيـ ـل ذات النخيــــل والأعناب
حيث تجرى السفين مستبقات فوق نهر مثل اللجين مــذاب

* * *

ذاك مرعى أنسى .. وملعب لهـ ـوى وجنى صبوتى .. ومغنى صحابى
لست أنساه ما حييت . . وحاشا أن ترانى لعهده غـــير صابى

* * *

لتهنأ روح البارودى ، فإن أمته الوفية الذاكرة ، تعرف حقه وحق العاملين من أجلها . . ويقيناً إن روح « البارودى » هانئة راضية فقد تحقق له ما كان يتمنى حين قال :

سيذكرنى بالشعر من لم يلاقنى وذكرى الفتى بعد الممات من العمر

يوسف السباعى

مهرجان

محمود سامي البارودي

الكلمات التى ألقيت فى الاحتفال
بذكراه بالقاعة الذهبية بقصر النيل
فى ١٥ ديسمبر سنة ١٩٥٧



محمود سامي البارودي

١٨٣٨ — ١٩٠٤

كلمة الافتتاح

للسيد كمال الدين حسين

رئيس المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب

حضرات السيدات والسادة . . .

باسم الله أفتتح هذا المهرجان ، للاحتفال بذكرى الشاعر الثائر المكافح محمود سامى البارودى .

ومن حقكم يا أدباء العرب ، وقد تداعيتم من شتى دياركم إلى مؤتمر عربى تتحدثون فيه عن الأدب والقومية أن تذكروا الشاعر العربى الذى كان أدبه فى مطلع هذه النهضة برهاناً من براهين هذه القومية ودعوة لها وكفاحاً فى سبيلها .

والحق أن البارودى لم يكن من شعراء القومية العربية فحسب ، بل كان هو ذاته برهاناً من براهين هذه القومية وصورة منها ، فقد كان برغم

نسبه فى الترك أو فى الشركس ، عربى القلب واللسان والوطن ، عربى الفكر والعاطفة والدعوة ، عربى الدين والخلق والمروءة . والقومية العربية دائماً ، قلب ولسان ووطن ، فكر وعاطفة ودعوة ، دين وخلق ومروءة ، لا عنصرية دم ، ولا عصبية جنس . . .

والبارودى إلى ذلك فصل بعنوانه فى تاريخ نهضتنا القومية ، من حيث إنه أول شاعر من شعراء هذه النهضة ، جدد بأدبه للقومية العربية شبابها ، ثم من حيث إنه كان فى هذه النهضة حامل سيف وصاحب قلم ، جمع الوسيلتين اللتين تكتمل بهما أسباب القوة فى كل نهضة قومية . . .

شاعر محارب بلسانه ويده ، يذكر فى تاريخنا الأدبى رابعاً لعنترة والمتنبى وأبى فراس ، استمد مثلهم روح الشعر من ريح الحرب ، فكان تاريخه مثل تاريخهم جزءاً من تاريخ أمته .

وإذا كانت النهضة الأدبية التى تلت عصر البارودى وتأثرت به هى التى هيأت النفوس من بعد لهذه الانتفاضات الثورية التى تصنع تاريخنا المعاصر ، فإن من حق البارودى علينا أن نعترف بأنه قادح الشرارة التى اتقدت منها مشاعل الشعراء والكتاب من بعده ، فكانوا بما نظموا وكتبوا ؛ مقدمة الثورات المتعاقبة من عهد عرابى ، إلى عهد مصطفى كامل ،

إلى عهد فيصل بن الحسين ، إلى عهد سعد زغلول ، إلى ثورة سنة ١٩٥٢ .

لقد بعث البارودى الشعر العربى من مرقده ، ونفض عنه الغبار الذى تراكم عليه منذ ألف سنة ، ففتح عيون قومه على معانى لم يكونوا يحسونها منذ عشرة قرون ، فكأنما وثب بهم فى الزمن بقدر هذه القرون العشرة فإذا هم على الطريق وقد انشق لهم فجر المستقبل .

وكان البارودى إلى كل ذلك معلم نفسه ، لم يتلمذ على شاعر ولا أديب ولا عروضى ، وإنما التمس أسباب العلم بالقراءة فتعلم ، والتمس أسباب العمل بالتجربة ، فأثمر عمله ، فقدم بذلك برهاناً جديداً على أن القراءة هى المعرفة ، وأن الإنتاج ثمرة التجربة .

أيها السيدات والسادة

إن العبرة المستمدة من حياة الشاعر الذى تحتفون بذكراه اليوم لتلهم معانى كثيرة ، لعلها أقوى ما يؤيد دعوتكم الرشيدة فى مؤتمركم العتيد إلى ضرورة الملاءمة بين الأدب والقومية العربية .

وفقكم الله وسدد خطاكم والسلام عليكم ورحمة الله .

ذكرى البارودى

للأستاذ عباس محمود العقاد

مقرر لجنة الشعر

الشعراء — الذين تدعونا خدمة الأدب واللغة إلى إحياء ذكراهم والإشادة بفضلهم — كثيرون — بحمد الله — فى اللغة العربية.

وهذه الكثرة المباركة هى التى تدعونا إلى اختيار المناسبة للوفاء بحقهم، لأن الاحتفال بهم فى موعد واحد غيرُ يسير، ولا يُعطِى كلاً منهم حقه من الإنصاف.

والبارودى — صاحب هذا اليوم — جندىٌّ باسل من جنود الحرية والثورة، ورائد سابق من روّاد الشعر والأدب، وحارس أمين من حُرّاس التراث العربى والثقافة الشرقية، فهو من أجدر الشعراء أن يُحْتفى بذكراه فى هذه الآونة.

ونكاد نقول: إنه هو الذى اختار موعده بوحى من سيرته وتاريخه؛ فكلما طاف بنا المطاف بعيداً من هذا الموعد الذى نحن فيه ردنا إليه لمناسبة قوية من المناسبات التى تُختار لإحياء الذكرى.

فذكرى جهاده تَحين فى شهر ديسمبر ؛ لأنه الشهر الذى خرج فيه من وطنه منفيًّا معاقباً على ثورته فى سبيل الإصلاح والحرية ، فقال — رافعَ الرأس مصرًّا على ذلك الذنب المشرِّف لذويه — :

وهل دفاعىَ عن دينى وعن وطنى ذنبٌ أُدان به ظلماً وأغترب

وذكرى وفاته تحين فى هذا الشهر بعينه ، وذكرى معالم أخرى من سيرته كذلك ... أما ذكرى ميلاده فلم نكن على يقين منها . ولكننا لو أخذنا بقول من الأقوال عنها لم يكن بيننا وبينها فى السنة الماضية غير أسابيع ، حدثت فى خلالها غاراتُ القناة ، ولم تنته هذه الغارات وجرائرها قبل أوائل ديسمبر من عامها .

ونحن فى سياق الكلام على شاعر — يخال ويتخيّل — لا حرج علينا أن نتكلم بالمجاز وأن نلتمس المشابهات من عالم الكواكب والنجوم .

فما هذه الصلة بين شهر ديسمبر وبين شاعر مجَدِّد من رواد النهضة والحرية ؟

إن ديسمبر يقترن بالشتاء ، وأولى مواسم العام أن يُقارنَ الشعرَ موسمُ الربيع .

لـكن المناسبة مع هذا حاضرة من مقارنات الخيال ، و إن خفيت من جانب الوقائع العلمية والأقيسة المنطقية .

فشهر ديسمبر هو الشهر الذى ينتصر فيه النور على الظلام و يقصرُ فيه الليل و يطول النهار . ومن هنا احتفل فيه الأقدمون بميلاد الشمس ، ولا تزال بقية من الاحتفال به باقية فى أرجاء العالم إلى هذه الأيام .

ولا نخالنا نشبِّه النهضة التى رادها البارودى بمشابهة أقرب من هذه المشابهة وأصدق منها . فلم يكن عالم الشعر قبله ظلاماً حالـكاً ، ولم يكن كذلك نهاراً وافياً بلغ الغاية من التمام والسطوع ، ولـكنه كان على نور فزاده نوراً ، وكان حوله ظلام فقصّ من أطراف ذلك الظلام .

كان يوم البارودى فى سماء الأدب كيوم الاعتدال فى سماء ديسمبر : مفترَقاً للطريق بين غلبة الظلام على النور ، وغلبة النور على الظلام .

ولم يكن البارودى أسبق الشعراء المحدثين إلى التجديد على التعميم ، ولـكنه فيما نرى كان أسبقهم إلى التجديد الذى يجمع بين إحياء سنّة السلف ، و بين الاحتفاظ بالطابَع الشخصى القوى ، حتى فى مقام المعارضة والمحاكاة .

انظروا إليه مثلاً وهو يعارض أبا نواس فى قصيدة من أفحل قصائده وهى القصيدة الرائية التى يقول فى مطلعها :

أجارةَ بَيْتَيْنا أبوكِ غيورُ . وميسور ما يُرْجَى لديك عسير

فإن شاعرنا الحديث يحرص فى معارضتها على أسلوب الأقدمين و ينحو منحاهم فى الرونق والجزالة ، ولكنك لا تخطئ أن تعلم حين تسمع رائيته أن البارودى هو الذى يتكلم وأن القائد المكافح والثائر الطامح هو الذى يقول :

خضعت لأحكام الهوى ولطالما أبَيْت فلم يحكُمْ علىَّ أمير

أفُلّ شَباةَ الليث وهو مُناجز وأرهَب لحظ الرِّيم وهو غرير

و يجزَع قلبى للصدود و إننى لدى البأس إن طاش الكمىُّ صبور

وما كلُّ من خاف العيون يَراعةٌ ولا كلُّ من خاض الحتوف جسور[1]

ولكن لأحكام الهوى جَبَرِيّة تبوخ لها الأنفاسُ وهى تفور

و إنى على ما كان من سَرَف الهوى لذو تُدْرَأٍ فى النائبات مُغير[2]

يرافقنى عند الخطوب إذا عرتْ جوادٌ وسيف صارم وجَفير

---

(١) اليراعة : الأحمق والجبان . (٢) التدرأ : القوة .

وكذلك كان البارودى كما وصف نفسه وكما عرفه واصفوه .

وعارض قصيدة البردة المشهورة للبوصيرى بقصيدته « كشف الغمة فى مدح سيد الأمة » — وهى الملحمة التى قال فى مطلعها :

يا رائد البرق يَمِّمْ دارَةَ العلَمِ   وَاحْدُ الغمامَ إلى حَيٍّ بذى سلَمِ

وقال فيها :

أدعو إلى الدار بالسُّقيا و بى ظمأٌ   أحقُّ بالرِّىِّ ، لكنّى أخو كرم

منازلٌ لهـــواها بين جانحتى   وديعةٌ سِرُّها لم يتَّصـــل بفمى

فإذا بطابعه الشخصى قد غلب على هذه المعارضة حتى كان شاعر — كأحمد شوقى — وهو أكبر اللاحقين بالبارودى فى جيله — ينظر إليه كما نظر إلى البوصيرى ، أو ينظر إلى مُعارض البردة أكثر من نظره إلى صاحب البردة ، كما تنم على ذلك كلمات هنا وكلمات هناك ، ومنها :

ونُودىَ اقرأْ تعالى اللهُ قائلُها   لم تتصلْ قبل من قِيلتْ له بفم

ولا نحسب أننا نخطئ التعليل إذا قلنا : إن « حافظ إبرهيم » إنما كان يقتفى أثر البارودى حين أراد أن يجمع بين الفروسية والشعر و بين الاشتراك فى ثورة الأدب وفى ثورة الذخيرة بالسودان .

و إننا لنلتقى بهذه الشخصية القوية فى صورة من صور الفطرة الحية حيثما قلبنا النظر فى جوانب أدبه أو جوانب سيرته وعمله ، بل نحن نلتقى بها — أولاً — فى مكمن البلاغة من أسلوبه الفخم الذى انفرد به بعد فترة من الأساليب الصادقة منذ قرون عدة . فإنما كانت بلاغته ملكة مطبوعة تأخذ ما عرضه عليها بداهة و بغير وساطة مصنوعة . فكان بليغاً لأنه استوعب روح البلاغة من مصادرها فى أقوال فحول الشعراء ، ولم يكن بليغاً لأنه تعلم النحو والصرف أو تعلم البيان والبديع .

قال أستاذه « الشيخ حسين المرصفى » : « إن محمود سامى البارودى لم يقرأ كتاباً فى فن من فنون العربية ، غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد فى طبعه ميلاً إلى قراءة الشعر وعمله وكان يستمع لبعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين ، أو يقرأ وهو بحضرته ، حتى تصور فى برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية ، فصار يقرأ وهو لا يكاد يلحن . . . » .

ومعنى هذا أن الشاعر اقتبس البلاغة على البديهة ولم يقتبسها تعليماً مفصلاً بقواعده ودروسه . و يبدو لنا فى تواريخ الرواد فى الحياة الفكرية والحياة العملية معاً أن هذه البداهة ملكة مطبوعة تصاحب الريادة فى جميع

نواحيها ، وقلما تكون محصورة فى ناحية واحدة ، لأنها متعددة الجوانب لعمق مصدرها وقوة مضائها ، ومن ثم كان البارودى زعيماً فى نهضة الشعر وزعيماً فى نهضة الحرية وزجلاً عملياً فى حياته العامة والخاصة . وما النهضات فى أصولها إلا نفحة حية من نفحات الوجدان تعمل بالقدوة الملهمة كما تعمل بالإقناع والإرشاد ، وربما كان عدد الذين يتبعون الزعيم للاقتداء به إعجاباً « بشخصيته » أكبر من عدد متبعيه الذين أقنعهم بلسانه أو بقلمه .

وهذا الشاعر الثائر جدير فى كل من هذين الميدانين بالتذكار والثناء من العالم العربى بأسره . إذ كان تجديد الشعر العربى والبلاغة العربية نهضة تهم الناطقين بالضاد حيث كانوا ، ومثل هذه النهضة نهضة الحرية التى برزت أول الأمر فى الثورة العرابية ، فإنها لم تكن ثورة موطن واحد أو بقعة واحدة فى البلاد العربية ، بل كانت إيذاناً بثورة هذه البلاد عامة فى طلب الاستقلال وطلب الخلاص من السيطرة الأجنبية .

ولا ينسينا فضل الشاعر البليغ والقائد الثائر فضلاً آخر للبارودى « الحاكم الإدارى » خليقاً أن يذكر كلما ذكر التراث العربى واللغة

العر بية ، وذلك هو فضله فى جمع الـكتب النادرة والمخلفات الأثرية يوم تولى نظارة الأوقاف وأشرف على معاهدها ومساجدها . فإن الأسفار القيمة التى جمعها يومئذ من مساجد مصر وزواياها ومعاهدها المهجورة كانت أول أساس بنيت عليه دار الـكتب المصرية وتلاحقت بعدها على أثر ذلك دور مثلها لا تزال تنمو وتتكاثر عاماً بعد عام .

ولأ كثر من مأثرة واحدة يعود إلينا اليوم ذكرى هذا الرائد القائل العامل . فكأنه نطق بلسان التاريخ :

قئول وأحلام الرجال عوازب   صئول وأفواه المنون فواغر

وكأنه جمع الأسفار لأنه علم أنه سفر باق يعود إليه من يصغى إلى بيان ومن يطلع فى كتاب

عباس محمود العقاد



مختارات من شعر البارودى

قدمها : الأستاذ عبد الرحمن صدقى

وألقاها الأستاذ محمد الطوخى

من الطبيعى ونحن نتحدث هنا عن الشاعر البارودى أن نفرد له بين خطباء الحفل بعض الوقت يستقل فيه بالمتعة وحده و يتحدث عن نفسه بنفسه وسيكون حديثه بينكم هو المختار من شعره ينشده لكم على لسانه أحد أعلام الممثلين من أحفاده المصريين وأكتفى أنا هذه المرة بأن أقدم لهذا الشعر بما قال الشاعر نفسه عن شعره :

يقول البارودى : « لقد كنت فى ريعان الفتوة ، واندفاع القريحة بتيار القوة ، ألهَج بالشعر لا تذرعاً لوجه أنتويه ، ولا تطلّعا إلى غُنم أحتويه ، وإنما هى أغراض حركتنى ، وإباء جمح بى ، وغرام سال على قلبى ، فلم أتمالك أن حركت به جَرْسى ، فسرّيت به عن نفسى » .

ولقد تردد البارودى فى نشر ما كان ينظمه من الشعر « تفاديا من خطأ ربما عرض أو ناقد ربما اعترض » على حد قوله ، بيد أنه يعود بعد هنيهة

ليقول « ولكنى ، لم أطق أن أغالب الطبيعة . . . فللإنسان فتون بشعره ، وولوع ببنات فكره ، ولولا ذلك ما دون الناس أشعارهم ، ولا اتخذوا حلية الأدب شعارهم ، وكيف لا ، و بقاء الذكرى حياة الأبد » .

إخوانى أدباء العرب :

إن اجتماعكم اليوم فى هذا الحفل لتكريم ذكرى البارودى الشاعر يقوم برهاناً جديداً على بلوغه ما كان يؤمله من بقاء الذكرى التى هى حياة الأبد فلنعش إذن فى شعره حياة الأبد ساعة أو بعض ساعة . وسينشدكم الشاعر مختار شعره القوىّ على لسان علم من أعلام المسرح المصرى الأستاذ محمد الطوخى ، ولقد روعى فيما وقع عليه الاختيار من أشعاره أن يكون ممثلاً لجوانب متعددة من شخصية الشاعر ، وتاريخ حياته ، وشتى ملكاته .

ثورة على الظلم

إنّي امرؤٌ كفَّنى حِلْمى وأدّبنى كَرُّ الجديديْن من ماضٍ ومُقتَبل

حلبتُ أَشْطُرَ هذا الدهرِ تجربةً وذقتُ ما فيه من صاب ومن عسل

فما وجدتُ على الأيام باقيةً أشهى إلى النفس من حرّية العمل

لكنّنا غرضٌ للشر من زمن أهلُ العقول به فى طاعة الخَمَل

قامت به من رجال السوء طائفةٌ أدهى على النفس من بؤس على ثَكَل

من كلِّ وَغدٍ يكاد الدّسْتُ يدفعهُ بغضاً .. ويَلْفِظه الديوانُ من ملل

ذلّت بهم مصرُ بعد العز واضطربتْ قواعدُ المُلْك حتى ظَلّ فى خلَل

وأصبحت دولةُ الفُسطاط خاضعةً بعد الإباء .. وكانت زهرةَ الدُّوَل

وأصبح الناسُ فى عمياءَ مظلمةٍ لم يَخْطُ فيها امرؤ إلا على زلل

لم أدْر ما حلَّ بالأبطال من خوَر بعد المِراس وبالأسيافِ من فَلَل

أصوّحتْ شجراتُ المجد أم نضَبَت غُدْرُ الحميّة حتى ليس من رجل

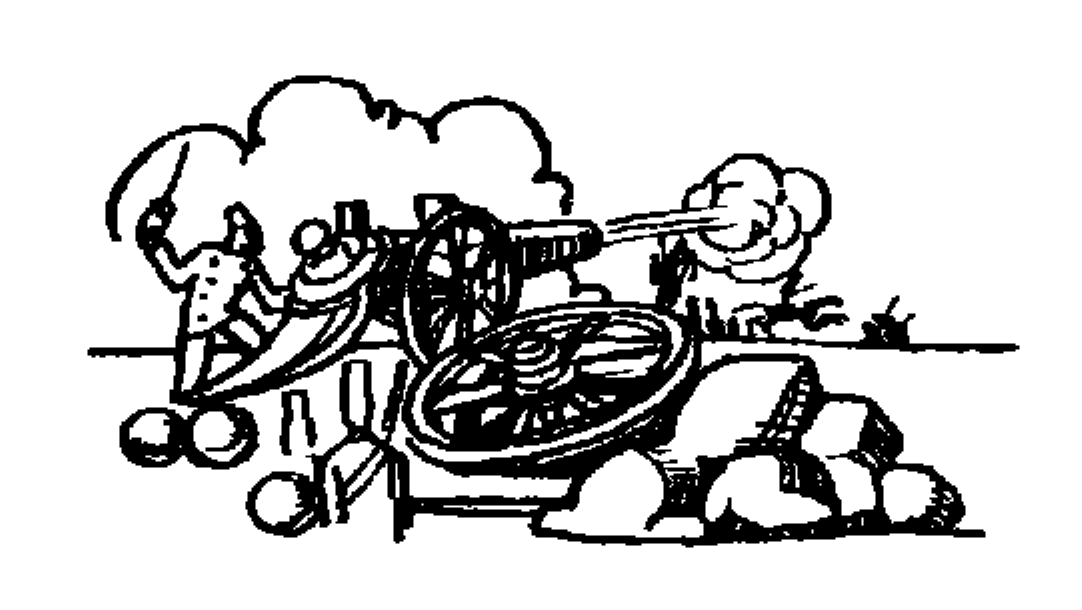
فما لكم لا تَعاف الضَّيْمَ أنفسُكم ولا تزول غوَاشيكم من الكسل

فبادروا الأمرَ قبل الفَوْت وانتزعوا شِكالة الرّيْث فالدنيا مع العجَل

وطالبوا بحقوقٍ أصبحت غرَضاً لكل منتَزعٍ سهماً ومختَتِل

حتى تعودَ سماء الأمن ضاحيةً ويرفُل العدلُ فى ضاف من الحُلَل

هذى نصيحةُ من لا يبتغى بدَلا بكم ..وهل بعدَ قومِ المرءِ من بدَل



دَعوة إلي الثـــورة

فيا قوم هُبُّوا . . إنما العُمرُ فرصةٌ وفى الدهر طُرْقٌ جَمَّةٌ ومنافعُ

أصبْراً على مسِّ الهوانِ وأنتم عديد الحَصى؟ إنى إلى الله راجع

وكيف ترونَ الذُّلَّ دارَ إقامةٍ وذلك فضلُ الله فى الأرض واسع

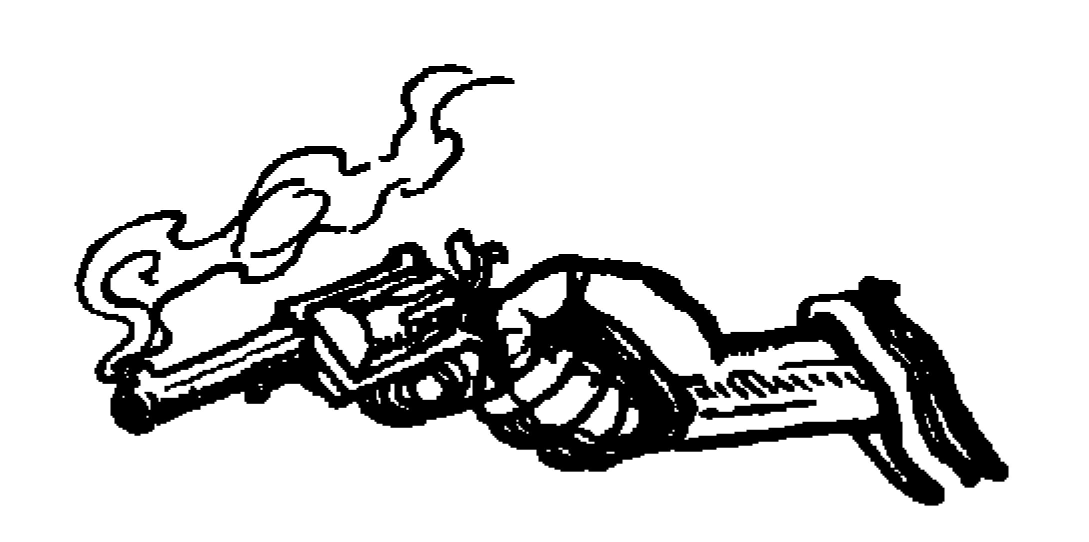
أهَبْتُ.. فعادالصوتُ لم يَقْضِ حاجةً إلىَّ . . ولبَّانى الصدَى وهو طائع

فلم أدْرِ أنَّ الله صوَّرَ قبلكم تماثيلَ لم يُخْلَقْ لهنّ مسامع

فلا تَدَعُوا هذى القلوبَ . . فإنها قواريرُ مَحْنِيٌّ عليها الأضالع

أرى أَرْؤُساً قد أينعت لحصادها فأين . . ولا أين السيوفُ القواطع

فكونوا حصيداً خامدين.. أوِ افزَعوا إلى الحرب حتى يدفَع الضَّيْمَ دافع



التنبؤ بالثورة

تنكرتْ مصرُ بعدالعُرْف واضطربت ... قواعدُ الملك حتى رِيعَ طائرُه

فأهمل الأرضَ جرّا الظلم حارثُها ... واسترجع المالَ خوفَ العُدْم تاجره

واستحكم الهولُ.. حتى ما يَبيت فتىً ... فى جَوشَن الليل إلا وهو ساهره

وَيْلُمِّهِ سكَناً . . لولا الدفينُ به ... من المآثر ما كنّا نجـاوره

أرضَى به غيرَ مغبوط بنعمته ... وفى سواه المنى لولا عشائره

يا نفسُ لا تجزعى فالخيرُ منتَظرٌ ... وصاحبُ الصبر لا تَبْلَى مرائره

لعلّ بُلْجَة نور يُسْتَضاء بها ... بعد الظلام الذى عمّت دياجرُه

إنى أرى أنْفُسًا ضاقت بما حملتْ ... وسوف يَشْهَرَ حَدَّ السيف شاهره

شهران أو بعضُ شهر إنْ هى احتدمتْ ... وفى الجديدين ما تُغْنِى فواقره

فإن أصَبْتُ فعن رأيٍ ملكتُ به ... عِلْمَ الغيوب .. ورأىُ المرءِ ناظره

في المنفى

يا نديميّ من « سرنديبَ » كُفّا   عن مَلامي .. وخَلّياني لما بي

كيف لا أندُب الشباب.. وقد أصبحـــت كهلا في مِحْنةٍ واغتراب

أخلَقَ الشيبُ جِدّتي .. وكساني   خِلعةً منه رَثّةَ الجِلبـــاب

ولوى شعرَ حاجبيَّ على عَيْـــنَيَّ حتى أطلَّ كالهُدّاب

لا أرى الشيءَ حين يسنَح إلا   كخيال .. كأنني في ضَباب

وإذا ما دُعيت حِرْتُ .. كأني   أسمَع الصوتَ من وراءِ حجاب

كلمـــا رمت نَهْضةً أقعدتني   ونِيَـةٌ لا تُقِلُّهـــا أعصابي

لم تدَع صَوْلة الحوادث مِني   غير أَشْلاء هِمَّة في ثياب

فَجَعتْني بوالديَّ وأهـــلي   ثم أنحت تَكُرّ في أترابي

كلَّ يوم يزول عني حبيبٌ   يا لِقلبي من فُرْقة الأحباب

فى مَوقف الـــوداع

ولما وقفنا للوَداع وأسبلت ... مَدامعُنا فوق الترائب كالمُزْن

أَهَبْتُ بصبرى أن يعود فعزَّنى ... وناديْت حِلْمى أن يثوبَ فلم يُغْن

وما هىَ إلاّ خَطْرةٌ ثُمَّ أقلعت ... بنا عن شُطوط الحى أجنحةُ السُّفْن

فكم مُهجةٍ من زَفْرة الوجد فى لَظًى ... وكم مُقْلة من غَزْرة الدَّمع فى دَجْن

وما كنت جرّبت الهوَى قبلَ هذه ... فلما دَهتْنى كدت أقْضِى من الُحزن

ولـكنّنى راجعت حِلْمى وردّنى ... إلى الحزم رأىٌ لا يحوم على أَفْن

ولولا بُنَيّاتٌ وشِيبٌ عواطلٌ ... لما قَرعتْ نفسى على فائت سِنِّى



حنين إلى ابنته

تأوّبَ طَيْفٌ من « سميرةَ » زائرُ ... وما الطيفُ إلا ما تُرِيه الخواطر

طوَى سُدْفةَ الظلماءِ.. والليلُ ضاربٌ ... بأَرْواقه .. والنجمُ بالأُفْق حائِر

فيالَكَ من طيف ألمَّ .. ودونَه ... مُحيطٌ من البحر الجنوبيِّ زاخر

تخطَّى إليَّ الأرضَ وَجْداً .. وما له ... سوى نَزَوَاتِ الشوق حادٍ وزاجر

ألمَّ ولم يلبَثْ .. وسَار .. وليْتَه ... أقامَ .. ولو طالت عليَّ الدياجر

تحمَّل أهوالَ الظلام مُخاطرا ... وعهدى بِمَنْ جادت به لا تُخاطر

تُمَثِّلها الذكرى لعيني .. كأنني ... إليها على بُعْدٍ من الأرض ناظر

فطوراً أخال الظنَّ حقّاً .. وتارةً ... أهيمُ .. فتغشى مُقْلتيَّ السَّمادر

فيا بُعْدَ ما بيني وبين أحِبّتي ... ويا قُرْبَ ما التفّتْ عليه الضمائر

فإن تَكُنِ الأيامُ فرّقن بيننا ... فكلُّ امرئٍ يوماً إلى الله صائر

ذكريات
مغاني الصبا

أين أيامُ لذّتِي وشَبــــابِي | أتُراها تعود بعدَ الذهاب ؟
ذاكَ عهدٌ مضَى . . وأبعدُ شيءٍ | أن يَرُدّ الزمانُ عهدَ التّصابي
فأديرا عليَّ ذِكراه . . إني | منذُ فارقْتُه شديدَ المُصاب
كلُّ شيءٍ يسلوه ذو اللب إلا | ماضيَ اللهو في زمان الشباب
ليتَ شِعْرِي متى أرى رَوْضةَ المنـ | ـيل ذاتَ النّخيل والأعناب
حيث تجري السفينُ مُستَبِقاتٍ | فوقَ نهرٍ مثلِ اللُّجَيْنِ المُذاب
قد أحاطت بشاطئيه قصور | مُشْرِقاتٌ يَلُحْنَ مثلَ القِباب
ملعَب تسرَح النواظرُ منه | بينَ أفنان جَنّة وشِعاب
كلّما شافَه النسيمُ ثراه | عاد منه بنَفْحَة كالمَلاب
ذاكَ مرعَى أُنْسي . . وملعَبُ لهوي | وَجَنَى صَبْوَتي . . ومغنَى صِحابي
لستُ أنساه ما حَيِيتُ . . وحاشا | أن تَراني لعهده غيرَ صابي

غـزل

ما أطولَ الليلَ على الساهرِ   أما لهذا الليل من آخرِ ؟

يا مُخْلفَ الوعد . . ألا زَوْرة   أَقْضِي بها الحقَّ من الزائر ؟

تَرَكْتني من غَمَرات الهوى   فى لُجِّ بحرٍ بالردى زاخر

أسمَع فى قلبي دبيبَ المنى   وألمَح الشُّبهَةَ فى خاطرى

فتارةً أهدَأ من روعتى   وتارةً أفزَع كالطائر

و بين هاتيْن شبَا لوعةٍ   لها بقلبي فَتْكةُ الثائر

فهل إلى الوُصْلة من شافع ؟   أم هل على الصَّبْوة من ناصر ؟

يا قلبُ لا تجْزعْ . . فإن المُنَى   فى الصبر . . واللهُ مع الصابر



فى الحرب

أخَذَ الـكرى بمعاقد الأجفانِ　　وهفا السُّرَى بأعِنّة الفُرسانِ

والليلُ منشور الذوائب ضاربٌ　　فوقَ المتالع والرُّبا بجِران

لا تَستبين العينُ فى ظلمائه　　إلا اشتعالَ أسِنّة المُرّان

فالبدرُ أَكْدرُ . . والسماء مريضةٌ　　والبحرُ أشْـكَلُ والرِّماحُ دَوانى

وضَعوا السِّلاحَ إلى الصباح .. وأقبلوا　　يتـكلّمون بألْسُن النِّيران

حتى إذا ما الصُّبحُ أسفرَ . . وارتمت　　عيناىَ بينَ رُبًا و بين مَجَان

فإذا الجبالُ أَسِنّةٌ . . و إذا الوِهَا　　دُ أعِنّةٌ والماء أحمرُ قانى

والخيلُ واقفةٌ على أرْسانها　　لِطِرادِ يومِ كريهةٍ ورِهان

فتوجَّسَتْ فَرْطَ الرِّكَاب ولم تكُنْ　　لِتَهاب . . فامتنعتْ على الأَرْسان

فزِعت فرجّعت الحنينَ . . و إنما　　تحْنانُها شَجَنٌ من الأشجان

ذكرت مواردَها بمصرَ..وأيْنَ مِنْ　　ماء بمصرَ منازلُ الرومان

الشوق إلى مصر

لَعَمْرِى.. لقد طال النوى.. وتقاذفتْ مَهامِهُ دونَ الملتقَى ومَطاوِحُ
وأصبحتُ فى أرضٍ يَحار بها القَطَا وترهَبُها الجِنّانُ وهْى سَوارح
بعيدةُ أقطار الدَّياميمِ .. لو عَدَا سُلَيْكٌ بها شَأْواً قضَى وهو رازح
تَصِيح بها الأصداءُ فى غسَق الدجى صِياحَ الثَّكالَى هيَّجتها النوائح
تردّت بِسَمُّور الغَمام جبالُها وماجت بتيّار السُّيول البطائح
فأَنْجادُها للكاسراتِ مَعَاقلٌ وأغوارُها للعاسلات مَسارح
مَهالِكُ ينسَى المرءُ فيها خليلَه وَيَنْدرُ عن سَوْم العُلا مَن يُنافح
فلا جَوَّ إلا سَمْهَرِىٌّ وقاضِبٌ ولا أرضَ إلاَّ شَمَّرِىٌّ وسابح
ترانا بها كالأُسْد نرصُد غارةً يَطير بها فَتْقٌ من الصبح لامح
مدافعُنا نُصْبَ العِدا .. ومُشَاتُنا قِيامٌ .. تَليها الصَّافنات القوارح
ثلاثةُ أصناف تَقِيهن ساقةٌ صِيالَ العِدا إن صاحَ بالشَّر صائح
فلستَ ترى إلا كُماةً بواسلا وجُرْدا تخوض الموتَ وهى ضوابح

تُغير على الأبطال والصبحُ باسمٌ ... وَتأْوِى إلى الأدغال والليلُ جانح

بكى صاحبي لما رأى الحربَ أقبلتْ ... بأبْنائها . . واليومُ أغبرُ كالح

ولم يك مبْكاه لخوفٍ . . وإنما ... تَوَهَّم أَنّى فى الكريهةِ طائح

فقال اتّئدْ قبلَ الصِّيال ولا تكن ... لنفسك حَرْباً . . إنّنى لك ناصح

ألمْ ترَ معقودَ الدُّخان كأنما ... على عاتق الجوْزاءِ منه سَرائح

وقد نشأت للحرب مُزْنةُ قَسْطَلٍ ... لها مُسْتَهلٌّ بالمنية راشح

فلا رأىَ إلا أن تكُونَ بنَجْوة ... فإنك مقصودُ المكانةِ واضح

فقلت تَعَلَّمْ إنّما هى خُطَّةٌ ... يَطُول بها مَجْدٌ . . وتُخْشَى فضائح

فما كلُّ ما ترجو من الأمر ناجعٌ ... ولا كلُّ ما تخشَى من الخطب فادح

فقد يَهْلِكُ الرِّعديدُ فى عُقْرِ داره ... وينجو مِنَ الحتْف الكمىُّ المُشَايح

وكل امْرِئٍ يوماً مُلاَقٍ حِمامَه ... وإن عاد فى أرسانه وهو جامح

فما بارحٌ إلاّ مع الخير سانحٌ ... ولا سانح إلا مع الشَّرّ بارح

فإنْ عشتُ صافحتُ الثريّا . . وإن أَمُتْ ... فإنّ كريماً مَنْ تَضُمّ الصفائح

في الزهد

كلُّ حَيٍّ سيموتُ ليس فى الدنيا ثُبوتَ

حَرَكاتٌ سوف تَفْنَى ثُمَّ يتلوها خُفُوت

وكلامٌ ليس يحلو بعدَه إلا السُّكوت

أيها السادرُ قُلْ لى أين ذاك الجبروت

كنتَ مطبوعاً على النُّطْـــــق . . فما هذا الصُّمُوت

ليتَ شِعْرى . . أَهُمودٌ ما أراه . . أم قُنُوت

أينَ أَمْلاكٌ لهم فى كُلِّ أُفْقٍ مَلَـكُوت

زالت التِّيجان عنهم وخلَتْ تلك التُّخوت

أصبحت أوْطانهم مِنْ بعدهم وهى خبوت

لا سميعٌ يَفقَهُ القَوْ لَ ولا حَىٌّ يَصُوت

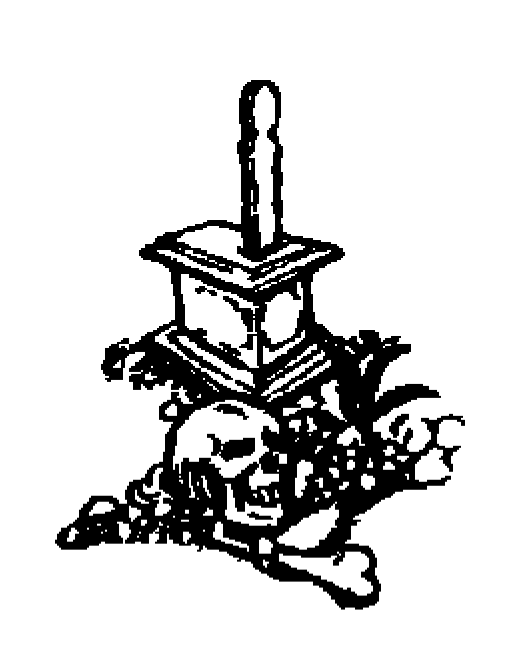
عَمَرَتْ منهم قُبورٌ وخلَتْ منهم بُيُوت

لم تَذُدْ عنهم نُحوسَ الد هر إذ حانتْ بُخُوت

خَمَدْت تلك المَساعِى وانقضت تلك النُّعوت

إنما الدنيا خَيالٌ باطلٌ سوف يَفوت

ليسَ للإنسان فيها غيرَ تقوَى اللهِ قُوت



فى ليلة المعراج

سما إلى الفَلَكِ الأعلَى فنال به قَدْراً يَجِلّ عن التشبيه فى العِظَمِ
وسار فى سُبُحات النُّور مُرْتقِياً إلى مَدَارجَ أَعْيَتْ كلَّ مُعْتَزِمِ
وفاز بالجوهر المكنونِ مِنْ كَلِمٍ ليستْ إذا قُرِنَتْ بالوَصْف كالكَلِمِ
سِرٌّ تحَار به الألبابُ قاصرةً ونِعْمةٌ لم تكن فى الدهر كالنِّعم
هيهاتَ يبلغ فَهْمٌ كُنْهَ ما بلَغَتْ قُرْباهُ منه وقد ناجاه من أَمَمِ



البارودى وأحفاده

للأستاذ عبد الرحمن صدقى

أستأذنكم هذه المرة أن أترك النثر إلى الشعر وأن أكون بينكم شاعراً بضع دقائق .

المقطوعة التى سأتلوها عليكم ، فيها جِدٌّ ودعابةٌ معاً . فأرجو أن يشفع أحدهما للآخر .

البارودى وأحفاده

يا باعثَ النهضة من بعـــد الركودْ

وقائدَ الحمـــــلة فى وسط الجنود

إليك من جُندك فى الشعر السلامْ

* * *

لو عُدْتَ من شوق إلى هذى الرُّبوعْ

أحْمدتَها ، لولا فُتونٌ وصُـــدوع

أحدثهـــا فى الشعر أحفادُ الإمام

* * *

أحدثَ أحفادُك في الشِّعر جديدْ

منذُ ارتأوْا في « الوزن » قيداً من حديد

أعياهمِ النظمُ فنادوْا « لا نظام ! ! »

* * *

وأطلقوا القولَ كما يَهْذِي الصريعْ

لا نسَقٌ فيـــه ولا النظمُ جميع

فوضَى رُكامٍ هِيلَ من فوق رُكام

* * *

يا داعياً للفنّ في أرض الجـــدودْ

وطالباً في فنه مجـــدَ الخلود

لا تترَخّص فيه أسباب الدّوام

* * *

أخـــلدُ ما أخرجه الفنُّ الرفيعْ

ما صاغه في قالَب جـــدٍّ منيع

من مُحْـكَمِ الشعر ومنحوتِ الرخام

* * *

لا شعرَ إلا فيه إيقاعُ النشيدْ

ينتظِمُ الأنغـامَ في نظمٍ فريد

وما سواه ، فـكلامٌ في كـلام



عصر البارودى

للأستاذ عمر الدسوقى

أيها السادة الكرام :

يمثل عصر البارودى حقبة من الزمن تغص بالأحداث الجسام التى كان لها أثر واضح فى تاريخ مصر والشرق العربى بعامة ، وفى حياة البارودى وشاعريته بخاصة ، وإن ما أتيح لهذه الكلمة من وقت لا يسمح بغير تصوير الملامح العامة والسمات البارزة للحياة السياسية والثقافية والاجتماعية لبيان هذه الفترة ، وبغير ما شارك فيه البارودى وتفاعل معه وتأثر به .

ولد البارودى فى عهد محمد على سنة ١٨٣٨ ، وتوفى فى عهد عباس الثانى سنة ١٩٠٤ ، وشهدت هذه الفترة كيف ابتدأ نفوذ الأجانب فى مصر يقوى ويشتد حتى انتهى بكارثة الاحتلال .

وفد هؤلاء الأجانب أول الأمر على مصر علماء وباحثين يشاركونها فى نهضتها ، ثم وفدوا إليها تجاراً مغامرين ، وكان جلهم فرنسيين لأن

فرنسا التي فاتها الغزو الحربى الذى حاوله نابليون عزّ عليها أن يفوتها الغزو الأدبى ، فأخذت تحُثّ رعاياها على الإقامة بمصر والإسهام فى اقتصادياتها بأموال طائلة كما عملت على بسط نفوذها الثقافى بإرسال عشرات البعثات التبشيرية والتعليمية . أما إنجلترا فقد أدركت أهمية مصر منذ أن غزاها نابليون ، ولذلك عملت جاهدة على إخراجه ، فكانت موقعة أبى قير ، ثم حاولت غزو مصر سنة ١٨٠٧ ، ولكنها هزمت فى رشيد ، بيد أنها لم تستنم للهزيمة ، وظلت تنتهز الفرص للتدخل فى شئون مصر حتى تم لها ذلك عقب الثورة العرابية .

بدت مطامع إنجلترا وفرنسا واضحة جلية فأثقلتا على مصر الديون ، وأنشئ بها صندوق الدين ، وفرضت الرقابة الثنائية ، ثم استحالت هذه الرقابة إلى مشاركة فى الحكم ، إذ دخل وزارة (نو بار) فى عهد إسماعيل وزيران أحدهما فرنسى يشرف على الأشغال ، والآخر إنجليزى يشرف على شئون المال ، ولذلك نقم الوطنيون وقادة الفكر بمصر وعلى رأسهم السيد جمال الدين الأفغانى على إسماعيل ، ونددوا بحكمه ، و إسرافه وتبذيره واستبداده وقسوته ، و بسيطرة الأجانب وطغيان نفوذهم ، وفى ذلك يقول البارودى معرضاً بالحاكم المستبد :

يأيها الظـالم فى ملكه أغرّك الملك الذى ينفَدُ
اصنع بنا ما شئت من قسوة فاللهُ عدلٌ والتلاقى غدُ

ونادى هؤلاء الأحرار بالدستور ، وبمشاركة الأمة فى الحكم حتى لا يقع الحاكم فى مثل ماوقع فيه إسماعيل من أخطاء ، بيد أن الأزمة المالية التى أوقع فيها مصر انتهت بتنازله عن العرش لابنه توفيق ، وكان الناس يؤملون خيراً فى توفيق هذا ، إذ كان يجتمع بالسيد جمال الدين وهو ولى العهد ويميل لآرائه ، ويسمع منه نقده لسياسة أبيه وإسرافه ، ولكنه ما لبث أن تولى الحكم حتى تنكر لمبادئه ولأصدقائه ، وأبى أن يأخذ بنظام الشورى ، وطرد السيد جمال الدين من مصر بغلظة وجفاء ، وأرجع المراقبة الثنائية ، وحكم البلاد حكماً استبدادياً استجابة للإنجليز ، فعز ذلك على كثير من رجال مصر ، ورأوا لزاماً عليهم أن يضعوا حداً لهذا التيار الفاسد ، وللظلم والرشوة والسخرة والاستبداد .

ثم كانت حركة الجيش والمطالبة بتولية المصريين المناصب العليا فيه ، وقد كانت قبل وقفاً على الجراكسة والأتراك ، وكانوا جفاة غلاظاً فثار الجيش ثورته العظيمة بقيادة عرابى سنة ١٨٨١ ، وخاض البارودى الثورة

فى طليعة الخائضين ، وولى وزارة الحربية ثم رئاسة الوزارة وكان يحرض الأمة على الثورة بشعره حيث يقول :

فيا قوم هبــــوا إنما العمر فرصة وفى الدهر طُرْقٌ جمة ومنافعُ
أصبراً على مس الهوان وأنتمُ عديدُ الحصى إنى إلى الله راجع
أرى أرؤسًا قد أينعت لحصادها فأين ولا أين السيوف القواطع
فـكونوا حصيداً خامدين أوافزَعوا إلى الحرب حتى يدفع الضيمَ دافع

وكان يرى أن الحاكم لم يستبد إلا لعجز الأمة واستكانتها :

وكذاك السلطان إن ظن بالأمـــة عجزاً سطا عليها وشدّا

وتطورت حركة الجيش إلى حركة عامة ، نادت بعزل توفيق ، والمطالبة بالدستور ، وبتحرير البلاد من النفوذ الأجنبي ، وأخذ كتّاب مصر وخطباؤها وشاعرها البارودى يصورون ما لاقته مصر على يد حكامها المستبدين من بؤس ومهانة ، وما تردت فيه من فقر ومذلة ، وما كان يعانيه الفلاحون من سخرة وتعذيب ، وضرب بالسياط فى سبيل الجباية ، ودفع الضرائب حتى نفر الناس من الأرض وكرهوا زراعتها ، وإلى هذه الحالة المزرية يشير البارودى :

تنكرتْ مصر بعد العُرْف واضطربت قواعدُ الملك حتى ريع طائرُه
فأهمل الأرضَ جرَّا الظلمِ حارثُها واسترجع المالَ خوفَ العُدْم تاجره
واستحكم الهولُ حتى ما يبيت فتى فى جَوْشَن الليل إلا وهو ساهره

وكان البارودى حرًّا أبىّ النفس يأنف من العسف والظلم ، ويتمثله بإحساس الشاعر ، ويحاول دفعه بشجاعة الفارس :

فحتّام نسرى فى دياجير محنــة يَضيق بها عن صحبة السيف غِمْدُه
إذا المرء لم يدفع يَدَ الجوْر إن سطت عليه فلا يأسفْ إذا ضاع مجده
ومن ذلَّ خوفَ الموت كانت حياتُه أضرَّ عليه من حِمَــام يؤُدّه
وأقتَلُ داءٍ رؤيةُ العين ظــالماً يُسيء ويُتْلى فى المحافل حمده

تطورت الثورة العرابية إلى ثورة عامة حمل لواءها الجيش ، ونهضت مصر على أثره تؤيده وتشجعه بكل ما أوتيت من قوة ومال ، ولـكنه كان جيشاً فقيراً ضعيفاً ، وموارد مصر قد استنزفها إسراف إسماعيل ، وكانت إنجلترا فى أوج عصرها الاستعمارى ، فهبت كما زعمت لحماية توفيق ، وضربت ضربتها فى يوليه سنة ١٨٨٢ ، وكانت معارك غير متكافئة بين

جيش مصر ، وجيش الإمبراطورية الاستعمارية ، وانتهى الأمر باحتلال مصر ، ونفى زعماء الثورة إلى سرنديب ومن هؤلاء البارودى ، الذى دفعته نفسه الأبية المتمردة على الظلم والطغيان ، المحبة للعدل والشورى والمساواة إلى مركز الصدارة بين أبناء وطنه ، وجعلت منه زعيماً محبوباً ، وألقت به فى غيابة السجن ، وطوحت به بعيداً عن وطنه .

ومن عجائب ما لاقيْت من زمنى   أنى مُنِيت بخطب أمرُه عجَبُ
لم أقترف زَلّةً تَقْضِى علىَّ بما   أصبحت فيه ، فماذا الويْل والحرَب
فهل دفاعىَ عن دينى وعن وطنى   ذنبٌ أُدان به ظلماً وأغترب

قضى البارودى سبعة عشر عاماً فى المنفى ، وزاده حبًّا فى وطنه وتعلقاً به ، وترديداً لمحاسنه ، وكان يتمثله على البعد جنة دانية القطوف عبِقة الشذى ، فقال فيه القصائد الخالدة وكانت نغماً جديداً فى الشعر العربى الحديث :

فيا مصر مد الله ظلَّك وارتوى   ثراكُ بسَلسال من النيل دافق
ولا برحت تمتار منك يدُ الصَّبا   أريجاً يُداوى عرفُه كلَّ ناشق
فأنت حمى قومى ومشعَبُ أسرتى   وملعب أترابى ومجرى سوابقى
بلاد بها حلّ الشبابُ تمائمى   وناط نِجادَ المَشْرفىِّ بعاتقى

وكم كان يتمنى أن يعود إلى مصر وأن يعيش بها ولو فى فقر مدقع لا فى رفاهية ونعيم كما كان يعيش قبل منفاه :

أصبو إليها على بعد ويعجبنى   أنى أعيش بها فى ثوب إملاق

وأخيراً عاد إلى وطنه ، والاحتلال جاثم على صدر مصر ، وكرومر هو السيد المطاع ، ولـكنهم لم يسمحوا له بالعودة إلا بعد أن كف بصره ، وثقل سمعه ، ووهن جسمه ، ودب فيه دبيب الفناء ، ولست أجد أروع ولا أوفى من قوله يصف ما أصابه فى هذه المحنة :

كيف لا أندب الشباب وقد أصـــبحت كهلاً فى محنة واغتراب

أخلَقَ الشيبُ جدّتى وكسانى   خلعـــةً منه رثّةَ الجلباب

ولوى شعر حاجبىَّ على عيـــنىّ حتى أطلَّ كالهُدّاب

لا أرى الشىء حين يسنَح إلا   كخيال كأننى فى ضـباب

وإذا ما دُعيت حرت كأنى   أسمع الصوتَ من وراء حجاب

كلما رمت نهضة أقعدتنى   ونْية منه لا تُقلّها أعصابى

لم تدع صولةُ الحوادث منى   غيرَ أشلاء هِمّة فى ثيـاب

عاد سنة ١٩٠٠ أشلاء همة فى ثياب ، والاحتلال فى عنفوانه ، ولكنه وجد شباب مصر بقيادة مصطفى كامل يُقض مضاجع المستعمرين ، ويثير الدنيا عليهم ، ويحاول أن يوقظ مصر وينظمها صفًّا واحداً متيناً يطرد الغاصب المحتل ، فكان ذلك عزاء للمجاهد المتهدم الذى ما لبث أن وافته منيته فى سنة ١٩٠٤ .

وإذا نظرنا إلى الحياة العقلية فى عصر البارودى ، وجدناه عصر البعث واليقظة ، بعد أن ظلت مصر ثلاثة قرون تحت حكم الأتراك وهى فى ظلمة عقلية دامسة ، وطغت فيها التركية ، وفشت على ألسنة الناس ، ولم يعد فى استطاعة كثير من الكتاب أن يسلموا من اللحن الفاحش ، أو يأتوا بالمفهوم المقبول ، واستعجم الشعراء ، وأصبح همهم النظم الذى لا روح فيه ولا معنى ، يساق فى عبارة ركيكة غثة ، وفى حشد زاخر من الزينات والمحسنات لتستر عواره ، وقد كان الشعر يلفظ أنفاسه الأخيرة عيًّا ومرضاً حين ابتدأت حركة البحث العقلى .

ومنذ أن دوت فى مصر مدافع نابليون عرفت أن ثمة دنيا أخرى حافلة بالعلم والحضارة والمال والقوة غير دنيا الأتراك والمماليك ، وما فيها من جهل وضعف وذلة وانحلال ، وأخذت مصر بأسباب النهضة العقلية فى شىء كثير

من الجد ، وكانت نهضة شاملة فى الجيش والزراعة والصناعة والتعليم والإدارة ، وسلكت فى تعليم الشعب شتى السبل ، فمن بعثات تنقل علوم الغرب وتجاربه ، إلى طباعة تدفع بالكتب الأدبية القديمة والعلمية الحديثة، إلى مدارس تبدد سدفة الجهل والظلام إلى صحافة تكشف الطريق وتزيل مابه من أوضار وعوائق .

ولد البارودى والنهضة تخطو خطواتها المتزنة ، وأعضاء البعثات يجددون شباب اللغة ويعملون على إثرائها بما ينقلون إليها من آثار الحضارة الغربية ، وعلى رأسهم رفاعة الطهطاوى وتلاميذه الذين تخرجوا فى مدرسة الألسن ، وقد بلغ ما ترجموه زهاء ألفى كتاب ، ورفاعة الطهطاوى يؤلف لأول مرة فى اللغة العربية فى المباحث الدستورية ، وحقوق الأمة أفراداً وجماعات ، فى كتابه تخليص الإبريز الذى نقل فيه دستور فرنسا وعلق عليه ، ويخوض فى واجبات المواطن الصالح ، ومسائل الوطنية والقومية وينظم الأناشيد الحماسية .

ولكن تيار النهضة قد توقف برهة على عهد عباس الأول الذى أغلق المدارس وسرح الجيش وحاول أن يرجع بمصر إلى عصور الظلمات .

وفى تلك الحقبة تخرج البارودى فى المدرسة الحربية ، ولكنه لم يجد جيشاً

ينتظم فى سلكه فعكف على كتب الأدب القديم ينشد فى أشعارها الحماسية تعويضاً ، وتلمذ على أمراء الشعر العربى فى عصوره الزاهية ، واستظهر خير ماجادت به قرائحهم . ودل حسن اختياره على أنه كان شديد التأنق فى غذاء عقله ، وكان لذلك كله أثر عميق فى إشراق ديباجته ، وشرف معانيه حين تفتحت موهبته الشعرية .

ثم ما لبث أن ضاق بمصر ذرعا فهاجر إلى تركيا ، ولم يعد إلا فى عهد إسماعيل حين استأنف موكب النهضة سيره ، وتولى شئون التعليم أحد أعضاء البعثات النابهين المخلصين وهو على مبارك . فأعاد للبعثات سيرتها الأولى ، وأخذت الحياة تدب إلى كل نواحى التعليم ، وأعيدت المدارس العالية ، وأنشئت دار العلوم لخدمة اللغة العربية ، ودار الكتب لتيسير العلم على الراغبين فيه ، وكثرت الجمعيات العلمية التى جدت فى نشر تراثنا القديم ، وكثرتها دليل على حيوية الأمة ، ورغبتها فى السير نحو الكمال غير معتمدة على الحكومة فى غذائها العقلى ، وتقدمت الصحافة تقدماً ملموساً وساعدت على تحرر اللغة من آفاتها القديمة التى ورثتها من عصور الانحطاط . ومن أهم تلك الصحف « الجوائب » لأحمد فارس الشدياق ، وقد ظهرت فى الآستانة أول الأمر سنة ١٨٦٠ ، وجمعت بين السياسة والأدب بشتى

فنونه ، (وروضة المدارس) التى أنشأها على مبارك سنة ١٨٧٠ وأشرف على تحريرها رفاعة الطهطاوى .

ومما ساعد على نمو الحياة العقلية فى عصر إسماعيل هجرة جماعة من أدباء سوريا إلى مصر عقب حوادث سنة ١٨٦٠ ، حين فروا بحريتهم من الاضطهاد ، فأسدوا للصحافة ولنشر الثقافة خدمات جليلة ، ومن هؤلاء أديب إسحق الذى كان شعلة من الحماسة والوطنية ، ومنهم سليم و بشارة تقلا صاحبا الأهرام وعشرات غيرهم .

كما كان لانتشار المطابع أثر بالغ فى التأليف والنشر ، مما ساعد على تيسير الكتب ودواوين الشعر للشادين فى الأدب والمغرمين به ، ولم يكن التيار القديم وحده هو منبع الثقافة ، بل كان هناك تيار غربى يقوى و يشتد كل يوم ، ولاسيما فى تلك الحقبة ، و يتجه وجهة أدبية وعلمية بعد أن كانت وجهته علمية خالصة فى مستهل النهضة ، فنرى قصصاً كثيرة تترجم ، ومسرحيات تعرب ينقلها أديب إسحق ، و يعقوب بن صنوع الذى كان أول من أنشأ مسرحاً عَرَّب له ما يزيد على ثلاثين مسرحية ، و يعرب محمد عثمان جلال بعض مآسى راسين ، و بعض ملاهى موليير ، وأمثال لافونتين .

ولعل من أكبر عوامل اليقظة العقلية فى تلك الفترة التى سبقت الثورة العرابية وجود السيد جمال الدين الأفغانى بمصر ، حيث كانت له دروس منظمة فى بيته تلقى على الصفوة المختارة من حوارييه أمثال محمد عبده وعبد الكريم سلمان وسعد زغلول ، و إبراهيم اللقانى ، وكان له مجلس آخر بأحد المقاهى مساء كل يوم حيث يلتف حوله أنماط شتى من الراغبين فى التزود من علمه وفكره ، يسألونه وهو يجيب إجابة العالم المحقق ، وكما يقول الشيخ محمد عبده « لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل أو يطهر العقيدة ، أو يذهب بالنفس إلى معالى الأمور أو يستلفت الفكر إلى النظر فى الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها ، فاستيقظت مشاعر ، وتنبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد خصوصاً فى القاهرة » .

وفى هذه الحلقة أنشئت مدرسة غير مقيدة بمنهج أو كتاب ، ولكنها كانت روحاً مشعة تبدد دياجير الغفلة ، وتحيي العزائم الميتة ، وتلهب الإرادات الخامدة ، وتفتح الأذهان المغلقة ، وفيها تخرج البارودى ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول ، و إبراهيم المويلحى ، وأديب إسحق ، وعبد الله نديم ، وأضرابهم من دعاة النهضة وروادها . و بحسب جمال الدين أثراً فى

الأدب أن وجهه إلى الاهتمام بالشعوب ومشكلاتها بعد أن كان كله يدور حول الأمير وحاشيته . ولهذه المدرسة ، ولمدرسة الشعر العربى القديم يدين البارودى بنزعته المتحررة ، وخروجه على تقاليد أبناء الطبقة العليا من الشعب ، فينشد الحرية والعدالة والشورى ، ويرى أن ذلك من مقومات الدين وتعاليمه ، فينقم على الحكام المستبدين ظلمهم للشعب وقسوتهم عليه ، واستئثارهم بخيراته ومقدراته ، وعبثهم وفسادهم حتى اضطربت الأمور واختلت الموازين فلا عجب أن قال فيه السيد جمال الدين : « إنه من خير من عرفت من المصريين » استمع إلى البارودى يفصح عن مبادئه فى قوله :

ولكننى ناديت بالعدل طالبا ... رضا الله ، واستنهضت أهل الحقائق
أمرت بمعروف وأنكرت منكرا ... وذلك حكم فى رقاب الخلائق
فإن كان عصيانا قيامى فإننى ... أردت بعصيانى إطاعة خالقى
وهل دعوة الشورى علىّ غضاضةٌ ... وفيها لمن يبغى الهدى كلّ فارق
وكيف يكون المرء حرًّا مهذبا ... ويرضى بما يأتى به كلُّ فاسق
فإن نافق الأقوام فى الدين غَدرة ... فإنى بحمد الله غيرُ منافق

ثم كان عهد الاحتلال ، وأصيبت النهضة بنكسة شديدة ، وفرضت اللغة الإنجليزية على كل مواد التعليم فى مصر منذ سنة ١٨٨٩ ، وتوقفت البعثات ، وتدخل المستشارون الإنجليز فى كل شئون الدولة . واشتدت مقاومة الحزب الوطنى بصحافته ومدارسه لهذا البناء الفاسد ولكنهم جنوا على التعليم وجعلوه عقيما همُّه إخراج طوائف من موظفى الدولة لا مفكرين ولا أحرار .

أما الحياة الاجتماعية فى عصر البارودى فلم تكن إلا حياة شقى فيها سواد الشعب المصرى شقاء كثيراً ، وعانى ضروباً شتى من العسف والظلم والسخرة والإرهاق . كانت مصر فى عهد محمد على أشبه بمزرعة كبيرة خاصة به وبحاشيته يديرها مشرفون من قبله يسمون « الملتزمين » يجبون له من خيرات البلاد ما يفرضه عليهم ، فيرهقون الفلاحين بالطلب ويأخذونهم بالقسوة ليحصّلوا منهم ماالتزموا به ، ويوفروا لأنفسهم ما يهيئ لهم العيش الرغد . وكان همّ محمد على منصرفاً إلى الجيش فلم يأبه بجمهرة الشعب وإصلاح حاله ومعالجة فقره ومرضه ورفع مستوى معيشته ، ومطاردة الأوهام والخرافات المسيطرة عليه . وكان عهد عباس وسعيد أسوأ من عهد محمد على ، وبحسبنا أن نتذكر كيف سخر المصريون فى حفر قناة السويس

وسيقوا بالسياط إلى هذا العمل من غير أن يجدوا لقمة الخبز أو جرعة الماء فمات منهم عدد كبير . وجاء إسماعيل فأسرف و بذّر واهتم بالمظاهر ، وأرهق الناس بالضرائب حتى وصلوا إلى الدرك الأسفل من الفاقة والعوز فهجروا الأرض ، وفروا بأبدانهم من سياط الجباة . ولم يكن للضرائب ميعاد تجبي فيه ، ولكنها كما يقول الشيخ محمد عبده « كانت تتجدد على الدوام بتجدد الأشهر والأعوام » . ومن آثر الاحتفاظ بأرضه لجأ إلى المرابين يقرضونه بالربا الفاحش ، فينوء كاهله عن السداد ، وسرعان ما تنزع منه الأرض .

وشعب هذه حاله لا ينتظر منه أن ينظر فى شئونه الصحية أو الخلقية أو الاقتصادية ، بل نرى جمهرته نهباً للجهل والخرافات والعلل . على حين كان أبناء الطبقة الحاكمة من أتراك وجراكسة يتمتعون بكل طيبات البلاد ، و يبذرون الأموال فى سعة وطيش .

ولقد كمم إسماعيل الأفواه ، وغلّ الأقلام ، وضرب على الصحافة قانوناً صارماً ، وصادر الحريات العامة والخاصة ، وكان حكمه استبدادياً قاسياً ، ومع أنه أبدع مجلس الشورى فى مصر إلا أنه كان مجلساً صورياً لا قيمة له ولا خير فيه ، و يقول الشيخ محمد عبده فى هذا المجلس بالعروة الوثقى :

« إن مبدع هذا المجلس قيده فى النظام والعمل ، ولو حدث إنساناً فكره السليم بأن هناك وجهة خير غير التى يوجهه إليها الحاكم لما أمكنه ذلك ، فإن بجانب كل لفظ نفياً عن الوطن، أو إزهاقاً للروح أو تجريداً من المال».

ولقد مَنّ (كرومر) على مصر فى كتابه « مصر الحديثة » حين ألغى كل هذه المظالم ، وكيف كان عهده نعمة على الفلاح إذا قيس بعهد إسماعيل وتوفيق . ولا بدع إذا ثارت نفس البارودى الحرة العيوف المتأبية على الظلم ، وحرضت على الثورة المسلحة لتقطع دابر الفساد .

وَيْلُمِّهِ سكَناً لولا الدفينُ به ... من المآثر ماكنا نجاوزه

أرضَى به غيرَ مغبوط بنعمته ... وفى سواه المنى لولا عشائره

يانفسُ لا تجزعى فالخيرُ منتظَر ... وصاحبُ الصبر لا تبلَى مرائره

لعل بُلْجةَ نورٍ يُستضاء بها ... بعد الظلام الذى عمّت دياجُره

إنى أرى أنفساً ضاقت بما حمَلت ... وسوف يشهر حدَّ السيف شاهره

ويصف الحكام الفاسدين ، وكيف يسومون الشعب الخسف وسوء العذاب ، وأن لا منجاة إلا إذا اجْتُثّ هذا الفساد من أصوله :

فما وجدتُ على الأيام باقيةً أشهى إلى النفس من حرية العمل
لكننا غرض للشر فى زمن أهلُ العقول به فى طاعة الخَمَل
ذلّت بهم مصر بعد العز واضطربت قواعدُ الملك حتى ظل فى خلل
أرض تأثّل فيها الظلم وانقذفت صواعق الغدر بين السهل والجبل
وأصبح الناس فى عمياءَ مظلمةٍ لم يَخْطُ فيها امرؤٌ إلا على زلل
لم أدر ما حل بالأبطال من خوَر بعد المراس و بالأسياف من فلل
أصوّحتْ شجراتُ المجد أم نضبَت غُدْر الحمية حتى ليس من رجل

كان البارودى يعبر عما يجيش فى نفوس الأحرار من أبناء مصر ، وكان يحرضهم على الثورة بشعره الملتهب وحميته المتدفقة ، فلا عجب أن قامت الثورة العرابية لتستأصل هذا الظلم الصارخ ولتنقذ البلاد من فساد شامل ولا عجب أن كان البارودى من دعائم الثورة خبّ فيها ووضع ، فجوزى بالنفى والتشريد ، حين تآمر الحاكم الفاسد مع المستعمر الطامع ، وآثر أن يضع نفسه وشعبه تحت أقدامه على أن يستجيب لرغبات هذا الشعب العادلة و ينصفه من نفسه ومن رجال حكومته الطغاة .

كان المجتمع المصرى فى ذلك العصر يتكون من أبناء الطبقة الحاكمة ،

ومعظمهم من الجراكسة والأتراك ، وهم أصحاب النفوذ وكبار الموظفين ، وقد ظلت اللغة التركية سائدة فى الدواوين معظم عهد إسماعيل. ولذا آثرت الحكومة أبناء هذه الطبقة ومن يجيد التركية بالوظائف الكبيرة . وكان لا همّ لأبناء هذه الطبقة إلا اللهو والمجون والإسراف فى الزينة والمأكل والملبس ، وقد وصفهم الشيخ محمد عبده فى الوقائع المصرية وصفاً بليغاً ونصحهم فلم ينتصحوا ، ووصفهم السيد توفيق البكرى فى «صهاريج اللؤلؤ» وصفاً شائقاً . على أن قليلا منهم عنى بحياة الجد وتشجيع الأدب والأدباء وكانت لهم مجالس يغشاها الكتاب والشعراء ، وكانوا يعتبرونهم ندماء ، ولذا شاع أدب المنادمة فى هذا العصر ، وقد وصف عبد الله النديم بعض هذه المجالس ، كما وصفها العلامة أحمد تيمور ، فى كتابه أعيان القرن الثالث عشر والرابع عشر من الهجرة .

أما سواد الشعب وهم أبناء العامة ، فالمتعلمون منهم ، سواء من تعلموا فى الأزهر أو فى مدارس الحكومة ، فكانوا يمثلون العنصر الصالح فى الأمة ، وتغلب عليهم المحافظة على التقاليد والامتثال لأوامر الدين ، وقد كانوا فيما بعد عماد الحركات القومية ، وعدة مصر فى جهادها . أما غير المتعلمين وهم الغالبية العظمى فى الريف والمدن ، فكانت تسود بينهم الخرافات ، وإن كانوا على شىء من الطيبة والتحفظ إلا أن الجهل كان

يفعل بعقولهم الأفاعيل ، ويتجلى ذلك فى الحفلات الدينية والموالد .

هذه أيها السادة كلمة موجزة عن عصر البارودى الذى كان من صنع عصره ، وكان هو كذلك من صانعى عصره استخدم فروسيته و بطولته فى الحوادث التى فرضت على مصر ، ونَشَّأَتْه السياسة وتعاليم جمال الدين ، والمُثل العربية العليا التى استوحاها من الشعر القديم، وطنيًّا حرًّا أبيًّا ، وانعكس كل ذلك فى شعره ، وفى أعماله . ووجد البارودى أمامه نهضة شاملة فى التعليم ومكتبات عامة تيسر العلم للراغبين فيه ، وصحفاً تنبه الأذهان وتعالج شتى مشكلات الشعب ، ومطابع تعمل على إحياء التراث القديم ، وعلماء ينقلون إلى العربية كنوز الغرب ، وحلقات علمية منظمة توجه الفكر إلى الإصلاح ، فأفاد من كل ذلك وقدَّم للعربية يداً أقالت الشعر من عثرته ، وأنهضته من كبوته، وأعادت له ديباجته المشرقة ، ومعانيه السامية ، وكأنما كانت فى يده عصا ساحر صيرت الميت حيًّا ، والضعيف قويًّا ، ولقد كان شعره ، كما وصفه :

إذا اشتد أوْرى زَنْدَة الحرب لفظُه وإن رقّ أزرى بالعقود فريدُه

إذا ما تلاهُ منْشد فى مَقامة كفَى القومَ ترجيعَ الغناء نشيده

سيبقى به ذكرى على الدهر خالدا وذكرُ الفتى بعد الممات خلوده

رأى فى شعر البارودى

للدكتور زكى نجيب محمود

عضو لجنة الشعر

يستهل المغفور له الدكتور محمد حسين هيكل مقدمته النقدية البارعة لديوان البارودى بقوله :

« شعر البارودىّ حياته » ، وعندى أن شعر البارودى لم يكن حياته — كما قال الدكتور هيكل — بقدر ما كان قراءته ، فأنت تستطيع أن تحيا حِياتك العملية فى ناحية وأن تمضى فى قراءتك ودراستك فى ناحية أخرى ، بحيث يسير الجانبان فى خَطّيْن متوازيين لا يلتقيان ، وهكذا كان البارودى أو كاد ، فهو إذا وصف أو تغزّل أو أجرى الحكمة فى شعره ، فالأرجح عندى أنه كان فى كل هذا يصدر — لا عن خبرته الذاتية الحيّة — بل يصدر عن رنين اللفظ كما وعتهُ أُذُنه مما قرأ للأقدمين .

محور الشعر عند البارودى هو حاسة السمع ، إليها ترتد الكثرة الغالبة مما نظم ، حتى الصور المرئية التى تكثر فى ديوانه كثرة ملحوظة ، مما جعل الدكتور هيكل يشير فى مقدمته للديوان إلى هذه الظاهرة بقوله : إن البارودى قد اعتمد فى تصويره على حاسة النظر أكثر من اعتماده على سواها ، أقول : إنه حتى فى هذه الصور المرئية ظاهراً ، كان فى الحقيقة يستند إلى محصوله السمعىّ أكثر مما يستند إلى رؤية العين ، العماد عنده هو الحاسة ، والحاسة عنده هى السمع ، والمسموع عنده هم القدماء — ذلك هو البارودى فى مصدره وفى منهجه ، فقد قرأ وقرأ وسمع وسمع ، وكانت له تلك الأذن الحسّاسة المرهفة المطبوعة على التقاط الرنين الموسيقى فيما كان يقرأ أو يسمع ، فجرى لسانه بما قد جرى على نسق النماذج التى انطبعت فى مسمعيه ، وكأنه الخطاط ذو اليد الصناع ، لا يخط الخط ابتداء ، بل يجرى على « مشق » أمامه بقلم ثابت بين أصابعه ، وحق له أن يقول :

تكلمت كالماضين قبلى بما جرت ... به عادةُ الإنسان أن يتكلما

فلا يعتمدنى بالإساءة غافلٌ ... فلا بدّ لابن الأيْك أن يترنما

* * *

فى هذا الشطر الأخير — فلا بد لابن الأيك أن يترنما — إشارة نريد الوقوف عندها قليلا قبل أن نستطرد فى حديثنا عن تأثر البارودى بسمعه قبل بصره ، وهى أن المحاكاة السمعية لرنين الشعر القديم ، محاكاة صادرة عنده عن طبع لا عن تكلف وتصنع فهو العصفور يترنم كالعصفور ، فلا شك أن شعر البارودى ينساب فى يسر كما ينساب الماء من ينبوعه ، وينبثق فى طلاقة كما تنبثق من الشمس أشعتها ومن الزهر أريجه ، إنه — كما يقول عن نفسه — كابن الأيك يترنم بطبعه ، وإن يكن يترنم على غرار ما ترنم سابقوه الأقدمون ، وفى هذا شموخه وسموقه بالنسبة إلى معاصريه ، فكلاهما ينسج على منوال قائم ، أما هو فينسج بطبع موهوب ، وأما هم فيتعثرون كما يتعثر من يرغم طبعه على ما ليس منه ، لم يكن البارودى كمعاصريه بحاجة إلى حفظ قواعد النحو والعروض والبديع لينظم على مقتضاها فذلك من شأن أصحاب الصناعة ، يقول الشيخ المرصفى عن البارودى فى كتابه « الوسيلة الأدبية » إنه « لم يقرأ كتاباً فى فن من فنون العربية ، غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلاً إلى قراءة الشعر

وعمله ، فكان يستمع لبعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين، أو يقرأ بحضرته ، حتى تصور فى برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمخفوضات حسبما تقتضيه المعانى . . ثم استقل بقراءة دواوين الشعر ومشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منه دون كلفة . . . ثم جاء من صنعة الشعر باللائق . . . »

كان البارودى إذن يسمع ثم ينطق وفق ما قد سمع ، وهو ينطق نطق السليقة المطبوعة التى لا تكلف فيها :

أقول بطبع لست أحتاج بعده إلى المنهل المطروق والمنهج الوعر

والمنهل المطروق هنا ، والمنهج الوعر ، هو منهل معاصريه ومنهجهم فى الكلام .

أسير على نهج يرى الناس غيره لكل امرئ فيما يحاول مذهب

* * *

وما دمنا بصدد الحديث عن فطرة البارودى الشاعرة ، التى ينبثق منها الكلام المنظوم المنضود ذو الجرْس الموسيقى الجميل انبثاقاً سهلًا كأنما

هو ظاهرة طبيعية تجرى مجراها فى غير عسر ، كما يرف الطائر بجناحيه أو كما تسبح السمكة فى الماء ، فإنه مما يُثير الإعجاب حقًّا فى شعر هذا الشاعر المطبوع ، أن الكلام فى نظمه يجىء بترتيبه الطبيعى كما يريده النحو ، فيندر جدًّا أن ترى عنده تقديماً أو تأخيراً أو تقصيراً بسبب ضرورة شعرية، إنما يجرى الكلام على سجيته و بترتيبه المألوف ، فيضيف هذا إلى جماله جمال البساطة ، دون أن تتأثر قوة اللفظ عنده بهذا الترتيب الطبيعى للكلمات ، و إن ذلك ليذكرنا بما قاله عبد القادر الجرجانى فى كتابيه « أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » من أن موضع الجمال الأدبى كثيراً ما يكون فى أن تتبع الألفاظ ترتيب المعانى فى العقل ، وهذه المعانى إنما تلتزم فى ترتيبها منطق العقل ، فهو الذى يوجب للسابق أن يسبق وللاحق أن يلحق ، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولًا فى النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولًا فى النطق .

و إذا أردت الشواهد من شعر البارودى على انطلاق كلامه المنظوم على الترتيب النحوى بغير حاجة منه إلى تقديم وتأخير . فلا حاجة بك إلى بحث طويل ، بل افتح ديوانه حيثما اتفق ، كما أفتحه أنا الآن على صفحة ٦٢ من الجزء الأول فاقرأ :

لو كان للمرء عقلٌ يَستضىء به — فى ظلمة الشّك لم تعلَقْ به النوَب

ولو تبيّنَ ما فى الغيب من حدَث — لكان يعلم ما يأتى ويجتنب

لكنه غرضٌ للدهر يرشقُـه — بأسهم ما لها ريش ولا عَقَب

فكيف أكتم أشواقى وبى كَلَفٌ — تكاد من مَسّه الأحشاء تنشعب ؟

أم كيف أسلو ولى قلبٌ إذا التهبت — بالأُفْق لَمْعَةُ برق كادَ يَلْتهب ؟

أصبحت فى الحب مَطْوِيًّا على حُرَق — يكاد أيسرُها بالروح ينتشب

إذا تنفّستُ فاضت زفرتى شرراً — كما استنار وراءَ القَدْحة اللهب

لم يبق لى غيرُ نفسى ما أجود به — وقد فعلت ، فهل من رحمةٍ تجبُ ؟

(من قصيدة قالها بسرنديب)

هكذا يكتب البارودى شعره وكأنه يتكلم ، ولا عجب ، فهو نفسه يصف الشعر الجيد فيقول: إن « خير الكلام ما ائتلفت ألفاظه، وائتلفت معانيه ، وكان قريب المأخذ ، بعيد المرمى سليماً من وصمة التكلف ، بريئاً من عشوة التعسف ، غنيًّا عن مراجعة الفكرة ، فهذه صفة الشعر الجيد » .

* * *

وأعود الآن إلى فكرتى الرئيسية التى أزعم بها أن شعر البارودى هو قراءته ، وأن محور الفطرة فيه هو أذنه الحساسة لجرس الكلام ، فهو حتى إذ يصف مشهداً مرئيًّا تراه يسوق اللفظ لحلاوة نغمه ولو جاء ذلك على حساب تماسك الصورة ووحدتها ، وها كم أمثلة توضح ما أريد .

ففى صورة واحدة يجعل الرياح شمالية ويجعلها شرقية ، ويربط بين الريح الشرقية وسقوط المطر مع أن ذلك لا يقع ، ثم هو يجمع بين الجلوس فى الفضاء المكشوف على سراب ، والمطر الهامى ، وهكذا ، إذ يقول :

أىشىء أشهى إلى النفس من كأ   سٍ مُدارٍ على بِساط نبـــات
هو يوم تعطّرت طرفاه   بِشمال مِســـكيّة النفحات
باسم الزهر ، عاطر النَّشْر ، هامى الـ   ـقَطْر ، وانى الصَّبا ، عليل المَهاة

فيستحيل أن يكون البارودى هنا مستنداً إلى خبرة مباشرة ، لأن اجتماع العناصر فى هذه الصورة محال كما قلنا ، ولكن ماذا عليه ؟ إنه

يستريح إلى هذه الألفاظ موضوعاً بعضها إلى جانب بعض لموسيقاها فى أذنه .

ترى هل كان البارودى حين يصف روضة المقياس فى شعره — وقد أكثر جدًّا من وصفها مما يدل على صلتها الوثيقة بحياته الخاصة — أقول : هل كان فى وصفه لروضة المقياس ، وهى لصيقة بنفسه ، يصدر فى الوصف عن رؤية العين أم كان يغلبه رنين اللفظ ؟ بعبارة أخرى هل كانت الصورة التى ينشئها صورة مرئية أو صورة سمعية ؟ إننى أميل إلى الظن بأن السمع عنده غالب على النظر ، وقراءته أسبق إلى قلمه من خبرة حياته ، وإلا لما دعا لروضة المقياس — الحبيبة إلى قلبه — بقوله :

فيا روضة المقياس حيّاك عارض   من المزن خفاق الجناحين دالح

ضحوك ثنايا البرق ، تجرى عيونُه   بودق به تحيا الربا والصحاصح

تحوك بخيط المزن منه يد الصَّبا   لها حلة تختـــــال فيها الأباطح

فهذه دعوات مفهومة على لسان عربى يعيش فى الصحراء ، لكنها غير مألوفة على لسان المصرى ، إذا كان هذا المصرى متأثراً بالحياة من حوله ، هذا إلى أن الصبا (وهى رياح شرقية) يستحيل أن تحوك بخيط

المزن حلة للأباطح فى مصر ، لأن الرياح الشرقية عندنا جافة لا تحمل السحاب ولا تنزل المطر ، وليست الربا مما يرى الرائى فى روضة المقياس ، لـكن البارودى لا يستهدف شيئاً من هذا ، وإنما هدفه فخامة اللفظ وروعة الموسيقى بحيث يجىء البناء كله على نحو ما كان يبنى الأولون من ناحيته السمعية .

ثم انظر إلى هذه الصورة الرائعة التى يصف بها جماعة النخل ، حتى ليخيل إليك من دقة الصورة أنه لا بد واصف ما ترى عيناه ، لـكنه يزل زلة تكشفه ، إذ يجعل الثمار آخذة فى الاحمرار وهو شىء لا يكون إلا صيفاً ، مع أن الصورة مرسومة فى أيام الربيع ، لـكنه الجرس البديع الرائع هو الذى يملك عليه السمع فيمضى فى القول أيًّا ما كان الواقع الذى يحسه :

والباسقات الحاملات كأنها ... عُمُدٌ مُشَــعَّبة الذُّرا ومنار
عقدت ذَلاذلَ سُوقِها فى جيدها ... وسمت ، فليس تنالها الأبصار
فأصولها للسابحات ملاعب ... وفروعها للنــيرات مطار
يبدو بها زَهْوٌ تخال إهانَه ... فُتُلاً تمشَّت فى ذُراها النار[1]

(١) الإهان : عرجون الثمرة .

طوْراً تَميل مع الرياح ، وتارة ترتد ، فهى تحرّك وقَرار
فكأنما لعِبت بها سِنةُ الـكرى فتمايلتْ ، أو بينها أسرار
فإذا رأيت رأيت أحسنَ جَنّة خضراءَ تجرى بينها الأنهار
يترنّم العُصفور فى عذَباتها ويَصيح فيها العَنْدل الصفار
فالتُّرْب مِسْكٌ ، والجداولُ فضة والقَـطْر دُرّ ، والبَهار نُضار
فاشرب على وجه الربيع . . . .

* * *

ولماذا نطالب البارودى بما لم يقل إنه فاعله ؟ لماذا نبحث عن الأساس الأول فى شعره وقد كفانا مئونة البحث بعبارة مختصرة يصف فيها رأيه فى الشعر كيف يكون ، بل كيف يتم خلقه وتكوينه ؟ وهى عبارة أراها مفتاحاً لـكل مستغلِق فى هذا الباب ، إذ يقول : « إن الشعر لمعة خيالية يتألق وميضها فى سماوة الفكر ، فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب ، فيفيض القلب بلألائها نوراً يتصل خيطه بأسَلَة اللسان » .

فخطوات الخَلْق الشعرى عنده هى : فـكر ، فقلب ، فلسان — وهى خطوات لو وصفناها بلغة علم النفس لقلنا : إنها : إدراك ، فوِجدان ، فنزوع ، فإذا أخذنا الرجل بنص عبارته — وأولى لنا أن نفعل — رأينا

أن نقطة البدء عنده إذا ما همّ بنظم قصيدة من شعره أن ترتسم فى ذهنه صورة ، إنه لا يقول إنه يبدأ بما يرى مباشرة ولا بما يسمع مباشرة بل يبدأ بصورة يتكامل بناؤها فى ذهنه أولاً ، وسيان بعد ذلك أن تكون الصورة مطابقة لمرئى أو لمسموع أو غير مطابقة ، وسواء عنده أ كانت أجزاء الصورة متسقة على نحو ما تتسق الأجزاء فى الواقع الخارجى أو غير متسقة ، فلا ضير أن يجعل رياح الخريف شرقية ، وأن تتلون ثمار النخيل فى الربيع ، وأن تكون روضة المقياس مزيجاً من ربا وأباطح ، وأن يكون النيل صافياً رائعاً فى شهر الفيضان ، لا ضير عنده ولا بأس فى شىء من هذا كله ، لأنه يبدأ شوطه ببناء صورة فى ذهنه ، يخلقها خلقاً من عنده ، طابقت وقائع العالم أو لم تطابق ، ولما كان مورده الأساسى هو المقروء من شعر الأقدمين ، كانت أجزاء الصورة التى يبنيها — فى الأعم الأغلب — مأخوذة من العناصر التى وردت فى ذلك الشعر ، حتى لو لم تقع له العناصر فى خبرته الحية الواقعة .

لكن هذه الصورة الذهنية التى يبدأ شوطه الفنى ببنائها ، لا تقتصر على مجرد الإدراك العقلى الجاف لإطارها وفحواها ، كما يرسم المهندس مثلاً تصميماً لمنزل ، فيخطط غرفه وأبهاءه ، تخطيطاً موضوعيًّا على مقتضى

الأمر الواقع ، لـكن مرحلة ثانية — هى التى يقول عنها البارودى : إنها مرحلة القلب — تتولاها بشحنة عاطفية ، بحيث تصبح الصورة المرسومة وكأنما هى مظهر لحبه أو نفوره ، إنه لا يرسم الصورة ثم يقف منها على الحياد كما يفعل الشاهد فى المحـكمة مثلاً ، بل يحورها هنا ويغيرها هناك ، يضع لها هنا أو هناك لفظة ترن على وتر مدبر مقصود ، كأنما هو رسام وقف أمام لوحته يميل برأسه يمنة و يسرة ليرى أين يضيف خطا وأين يحذف خطا، أين يضيف لوناً وأين يغير لوناً ، لتعمق الصورة فى وقعها على نفسه ونفس رائيها .

كل ذلك واللسان لم ينطق بعد ، حتى إذا ما تكاملت الصورة بناء ولوناً ، إذا ما تكاملت لحماً ودماً — إذا ما تكاملت فكراً وقلباً ، أو عقلاً وعاطفة ، جرى بها اللسان ألفاظاً منضودة منظومة ، هى القصيدة من قصائده ، و إن للبارودى من هذه الصور لروائع وآيات ، أسوق لك منها صورتين أو ثلاثاً :

فهذه صورة صيد دعا إليه أصدقاءه فى مطلع الصبح فجاءوا إليه مسرعين بخيلهم وكلابهم :

وفتيان لهو قد دعوتُ وللكرى خِباء بأهداب الجفون مُطَنّب

إلى مربع يجرى النسيمُ خِلاله بنشر الخُزامَى ، والندى يتصبّب
فلم يمض أن جاءوا مُلبِّين دعوتى سِراعاً ، كما وافى على الماء ربرب
بخيل كآرام الصريم ، وراءها ضوارى سلوقٍ : عاطلٌ ومُلَبَّب
من اللاء لا يأكلن زاداً سوى الذى يُضَرِّسْنه ، والصيدُ أشهى وأعذب
ترى كل مُحْمَرّ الحماليق فاغرٍ إلى الوحش ، لا يألو ، ولا يتنصّب
يكاد يفوت البرقَ شَدًّا إذا انبرت له بنت ماء ، أو تعرّض ثعلب

هذه صورة للصيد متكاملة البناء ، ولو اقتصر البارودى على العناصر الهيكلية التى تُكوِّن إطار الحوادث ، لاقتصر الأمر على صورة عقلية ، لكنها أصبحت شعراً حين أضاف إلى العقل قلباً و إلى الهيكل العظمى وجداناً ، لو قال مثلاً : وفتيان لهو قد دعوت إلى مربع يجرى النسيم خلاله ، وكان الندى عندئذ يتصبب ، فلبوا دعوتى سراعاً بخيل بيض تجرى وراءها كلابهم السلوقية التى يقف الواحد منها إزاء الصيد وهو محمر العين فاغر الفم ، لو قال البارودى هذا لكملت الصورة عند التصور العقلى ، لكن مرحلة أخرى كان لا بد منها عنده ، هى مرحلة النفثة الوجدانية ، فالنسيم الذى يجرى خلال مربع الصيد يجرى « بنشر الخزامى » ،

والصحاب حين وافوه فى الموعد المضروب ، إنما وافوا « كما وافى على الماء ربرب » ، والخيل البيض كانت « كآرام الصريم » (أى الظباء البيض على الرملة المنقطعة . . . وهكذا إلى آخر هذه اللمسات التى جعلت من هيكل الحوادث صورة حية مترعة بالشعور .

وهذه صورة أخرى لأباريق الشراب وحولها الكئوس :

يتساقون بالكئوس مُداما هى كالشمس فى قميص إياة[1]

فى أباريقَ كالطيور اشرأبّت حذَر الفتك من صِياح البُزاة

حانيات على الكئوس من الرأ فة ، يُرْضعنهنّ كالأمّهات

فليست العبرة هنا بعناصر الصورة كما تراها العين ، بل بهذه الإضافات التى يضيفها الشاعر ليستثير بها وجداناً من نوع خاص ، هو هذا الحنان الدافئ العاطف فلعل مجلس الشراب حين تمثله فى ذهنه كان هامساً خافتاً على نحو ما يقتضيه اجتماع العاشقين .

ثم انظر إلى هذه الصورة التى يصور بها ميدان القتال فى الحرب بين تركيا وروسيا وقد اشترك فيها البارودى ، هى صورة تطالعها فتكاد ترتعد

---

(١) الإياة : نور الشمس .

خوفاً حين تحس ظلمة الليل قد أطبقت على تيه من الأرض ، وليس فى أطباق الجو إلا العواصف تزأر و إلا السحاب يلف السماء ، وسيول المطر دافقة على الأرض ، وقد اعتصمت كواسر الطير بقنن الجبل و كمنت الذئاب فى جوف الوادى :

وأصبحت فى أرض يَحار بها القَطا ... وترهَبها الجِنّان وهى سوارح

بعيدةُ أقطار الدّياميم ، لو عدا ... سُلَيْكٌ بها شأواً قضَى وهو رازح

تَصيح بها الأصداء فى غسَق الدجى ... صياحَ الثكالَى هيّجتها النوائح

تردت بسمُّور الغمام جبالُها ... وماجت بتيار السيول البطائح

فأنجادُها للكاسرات مَعاقل ... وأغوارها للعاسلات مسارح

* * *

و يستطرد الشاعر فيصور القتال وقد اضطربت به أرض المعركة :

فلا جوَّ إلا سمهرىٌّ وقاضب ... ولا أرضَ إلا شَمَّرِىٌّ وسابح

ترانا بها كالأُسْد نرصد غارةً ... يطير بها فَتْقٌ من الصبح لامح

مدافعُنا نُصْبَ العدا ، ومشاتُنا ... قِيامٌ ، تَليها الصافنات القوارح

ثلاثةُ أصناف تقيهن ساقةٌ ... صيالَ العدا إن صاح بالشر صائح

فلست ترى إلا كُماةً بواسلاً   وجُرْداً تخوض الموتَ وهى ضوابح
تُغير على الأبطال والصبحُ باسم   وتأوى إلى الأدغال والليلُ جانح

وإذا كان الشعر التصويرى يختلف عن لوحات الرسام بما فيه من فعل وحركة ، فإنى لأرى الفعل والحركة فى هذه الصورة البارودية وفى غيرها قد بلغا حد الكمال .

* * *

والفعل والحركة هما من أبرز ما يميز الشعر دون سائر الفنون ، فلئن كانت لوحة الرسام أو التمثال — يشغل حيزاً من مكان ، وتكفيه النظرة الواحدة فى اللحظة الواحدة لتلم بأطرافه كلها ، فالشعر — كالموسيقى — يملأ فترة من زمن ، فلا بد من امتداد زمنى ، طال أو قصر ، لقراءة القصيدة من الشعر ، ولذلك كان أنسب ما يناسب الشعر هو ما يمتد على فترة من زمن ، أعنى حركة وفعلاً تتطور أجزاؤه بحيث يستلزم طولاً زمنيًّا لتمامه ، إن عبقرية التصوير وعبقرية النحت هما فى تجميد لحظة معينة فى مكان ثابت ، وأما

عبقرية الشعرفى إبراز الفاعلية والنشاط الحركى الذى ينساب على سلسلة من لحظات متعاقبات .

ويكاد يستحيل أن تجد للبارودى قصيدة تخلو من الحركة أو الإيحاء بها، وهأنذا أفتح الديوان اتفاقاً ، فأقرأ :

وخميلة بكرت سماوةُ أيْكها تحمى الهجيرَ عن النفوس وتدرأ

تستنّ فيها الريحُ بين مَنابت خضراء ، يغشاها الجبان فيجرؤ

تستوقف الأبصارَ فى غُدرانها صُوَرٌ تزول مع النسيم وتطرأ

فالوُرقُ تهتف، والربارب ترتعى والعِينُ تبغَم ، والبلابل تَصْرَأ

شجراء تسلكها السَّمومُ فتغتدى رَهْواً ، ويسكنها الهجيرُ فيمرأ

فالريح تكتب والغدير صحيفة والسحب تنقُط ، والحمائم تقرأ

واقرأ هذا البيت من قصيدة فى مجلس شراب :

فهات وخذ واشرب ودر واسق وارتجع إلى الدَّوْرِ من بدء على الندماء

أو اقرأ أبياته فى وصف القتال .

سيداتى وسادتى :

فى محيط من الركاكة انطلق هذا الصوت العربى المبين ، انطلق إبان الثورة العربية وبعدها ، فكان بمثابة ثورة كبرى جاءت فى غضون ثورة صغرى ، فلئن كانت الثورة العرابية ثورة قومية وطنية ، فقد جاءت لفتة البارودى إلى مجد آبائه وأجداده ثورة عربية شاملة ولقد أصيبت الثورة الصغرى بنكسة ، وأما هذه الدعوة العربية فقد ضربت بجذورها ونمت وترعرعت وارتفع فرعها إلى السماء ، إذ استجاب لها شاعر بعد شاعر ، وداعية بعد داعية ، حتى أصبحنا وفاتحة دستورنا أننا جزء من أمة عربية ، عقدت عزيمتها بعون الله على أن يكون طارفها استئنافاً لتليدها — بدأت الثورة عرابية فجعلها شاعرنا البارودى ثورة عربية تلك هى رسالة العروبة فى شعر البارودى ، كأنما كان البارودى وحده حزباً بأكمله ، وكأنما كان شعره روحاً ينفخ فى جسد عملاق فتر ووهن على مر الزمن ، فاستيقظ هذه اليقظة الواعية التى نحياها اليوم بفضله وفضل تابعيه .

وإنى وإن أصبحت فرداً فإننى بنفسى عشير ليس ينجو طريدُه

ولى من بديع الشعر ما لو تلوته على جبل لانهال فى الدَّوِّ رِيده

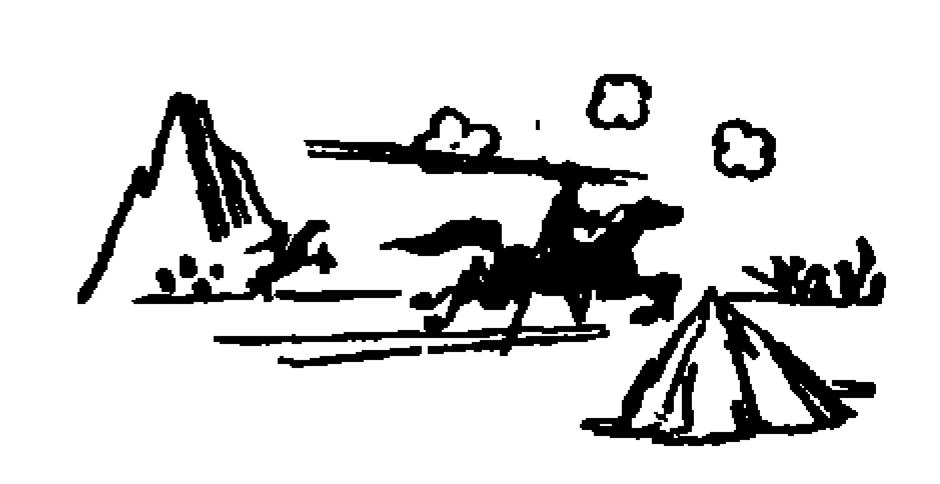
إذا اشتدّ، أوْرى زَنْدةَ الحرب لفظُه ‏ ‏ ‏ ‏ وإن رقّ أزرى بالعقود فريده

يقطّع أنفاسَ الرياح إذا سرى ‏ ‏ ‏ ‏ ويسبق شأوَ النَّـيرينْ قصيده

إذا ما تلاه مُنْشِــد فى مَقامة ‏ ‏ ‏ ‏ كفى القومَ ترجيعَ الغِناء نشيده

سيبقى به ذكرى على الدهر خالداً ‏ ‏ ‏ ‏ وذكْر الفتى بعد الممات خلوده

زكى نجيب محمود



على لسان البارودى

للأستاذ على أحمد باكثير

مِنَ الملأ العُلْوىِّ فى العالَمَ الثانى ... إليكم تحياتى وشوقى وتَحْنانى

تحيات صَبٍّ بالكنانةِ مُولَعٍ ... إلى نيلها السَّلسالِ فى الُخلْد ظمآن

يَحنُّ إلى شُطْآنه كُلّما رنا ... إلى رَبَواتٍ فى الِجنان وشُطْآن

ويهفو لآكام المُقَطّم كلّما ... تأمل فى آكام دُرٍّ ومَرْجان

وحُوريةٍ طافتْ علىَّ بكأسها ... لتسقيَنِي ما بين حُور ووِلْدان

رأتنىَ عنها فى ازْورارٍ ، وما درتْ ... بأنّ ادّكارى للكنانة ألهانى

ولولا هوى مصرٍ لما حنّ شاعرٌ ... من العالمِ الباقى إلى العالم الفانى

لقد كنت أهواها ولم تك لى رِضاً ... وكان ُنفاتى حَاكميها وسُجّانى

فما ظنّها بى اليومَ إذْ هى حُرّة ... مطهَّرة من كل ذل وطغيان

قدُ اجْلِىَ عنها الُحمْرُ من آل رتشر ... وأُقْصِىَ عنها الصُّفر من آل خاقان

وآل إلى أبنائها السُّمْرِ أمرُها ... مِنَ أحْفاد رمسيس وأبناء قَحْطان

وناهيك بالأجداد شعبَ حضارة ... وناهيـــك بالآباء أمةَ قرآن !

هم عَلّموا الإنسانَ أولَ حِكْمة ... وسادوا على الدنيا بأعدل سلطان

وكانوا هدًى للعـــالمينَ ورحمةً ... بأَقْباس عِرْفان وأنفاس إيمان

* * *

تساءلتُ ما ذاك البِناء الذى علا ... على كل صرح فى الزمان و إيوان

تبحبَح ما بين الخليج وطنجـــةٍ ... وما بين طُوروس وأكناف شمسان

فأطربَ سمعى أنه مجـــدُ أمتى ... وأثلج صدرى أنّ شعبى هو البانى !

لإقرار سلم فى البسيطة شامل ... وقسطاسِ عدل للشعوب وميزان

* * *

أحقًّا بنى الفصحى تجمّع شملُكم ... فعدتم كما كنتم كمرصوص بُنيان

لكم وطن أقطارُكم وَحَداتُه ... كأطياف ضوء الشمس من شتّ ألوان

ألَا فاحفظوه الدهرَ من كلِّ معتد ... ومن كل دسّاس ومن كلِّ خَوّان

ولا تعجبوا من مصر إن حفلت بكم ... وضمكمو فى رقة صدرُها الحانى

فما هى إلا أمكُم حال بينهـــا ... و بينكمو دهراً نوائبُ أزمان

إلى أن أتاكم من صميم صعيدِها ... فتًى عبقرىٌّ لا هَيوبٌ ولا وانى

يكاد يرى الغيبَ البعيدَ برأيه إذا انبهم الأمر القريب على الرانى
دعاكم فلبّيتم لإحياء مجـــدكم دعاكم فلبيتم لبعثكم الثانى
فأضحت لكم بينَ الشعوب مكانةٌ عَرفتم بها أين الصديقُ من الشانى
أراد بُغاة العـــالَمَ الُحرِّ وأدَكم فصبّوا على مصر شآبيب نيران
هناك تصدّت بور سعيد لصدّهم بكل كَمِيٍّ من كهول وفتيـــان
فردت جُموعَ المعتـــدين بغيظم إذا انقلبوا عنها بعار وخُسْران
وأملت على الأيام أروعَ قصةٍ لشعب حَمَى استقلالَه بالدم القانى

* * *

سلام عليـكم إذ وفدتم لتحتَفُوا بشعرى وتُعلوا فى نَدّيكمو شانى
عسى فيكم من لا يقاس بشعره قريضى ومن فى الفضل يرجح ميزانى
ولـكنّ معنى للوفاء دعاكمو لتمجيد شعر مُحْـكَم النّسج رَنّان
شدوت به فى عهد ضَعْف وفُرقةٍ وكثرة أعـــداءٍ وقِلّة أعوان
وقوم كأهل الـكهف طال سُباتُهم ودونهم الدنيـــا على فَمِ بركان
من العرَب الأَقْحاح لكن يَسوسُهم أعاجمُ عُجْمٌ عن قريضى وتبيانى

نظمت على نهج الفحول قصائدى ... لأنشرَ مَيْتَ الشعر من طَيّ أكفان

وعذرىَ أنّى لم أكن غيرَ رائدٍ ... بأرضٍ خَلاءٍ من نُبوغ وإحسان

وحسبيَ تمهيــدى لشوقى وحافظ ... وإبداع عباس وإمتاع مطران

ولو عشت فى عهد عظيم كعهدكم ... لأطربت أسماع الزمان بألحانى

لأنطقنى الأبطــال فيكم ملاحماً ... يفوق بها ديوانَ هومير ديوانى

(جمال) لعمرى لَهْوَ أعظمُ سيرةً ... من آشيل أو أوليس فى كل ميدان

لقد عاد سفر المجد فى العرب ثانياً ... وكان (جمال) فيه أجملَ عنوان

وَدِدْت لو انى عدت للأرض بينكم ... لتشهدَ محيا أمة العرب أجفانى

لأحمل سيفى فى طليعــة جيشها ... بأرض عُمان أو بأنحاء وَهران

لعــــلّى إذا ما كلل العز أمتى ... تفارقنى ذكرى هوانى بسيلان

ولست أبالى إذْ أجاهد دونَهــا ... بأى ثرًى من أرضها الموتُ يلقانى

هناك أحلّ الخلدَ جذلانَ راضياً ... بغير رسيس من هموم وأشجان

متى ظفرت بالعز أقطارُ يَعرُبٍ ... جميعاً فعندى الُخلْدُ والأرضُ سِيّان

علی أحمد باكثير

تحيـــة للبـارودى

للدكتور محمد يوسف نجم

من أعضاء الوفد اللبنانى

أيها الحفل الـكريم :

إنه لاتفاق سعيد أن يكون الاحتفال بذكرى البارودى ، فى أثناء انعقاد المؤتمر الثالث لأدباء العرب وكأنما عز على هؤلاء الأدباء أن تفوتهم فرصة المشاركة فى هذا المهرجان فأدركوه فى آخر يوم من أيام مؤتمرهم ، ليؤدوا حقًّا عليهم لرائد من رواد الإحياء والبعث فى أدبنا العربى الحديث ، بل قوميتنا . ومن أحق من الأدباء العرب بالمشاركة فى الاحتفال بذكرى هذا الرائد ، وقد اتخذوا لمؤتمرهم موضوع « الأدب والقومية العربية » عنواناً .

ولعل هذه المناسبة تضرب مثلا واضحاً لفـكرة طالما رددها أعضاء المؤتمر فى أبحاثهم وأكدوها فى مناقشاتهم ، من الصلة الوثيقة بين ماضى الأدب العربى ، والشعر منه بخاصة ، و بين التمكين للقومية العربية . ومن العلاقة المتينة بين إحياء تراثنا الأدبى منذ بدء النهضة الحديثة ، و بين بعث

قوميتنا العربية ، لتقف فى وجه ما بلينا به من غزو سياسى مهد له غزو فكرى ثقافى كان يرمى إلى توهين صلتنا بتراثنا والمباعدة بيننا و بينه ، ليضعف فى نفوسنا إحساسنا بمقومات أمتنا ، ثم ما استشعره أعضاء المؤتمر من أثر تراثنا الأدبى ، فيما نرجوه منه فى شحذ الهمم و إطلاق النفوس لاستشراف مستقبل يقوم على أسس ثابتة من حاضر واع وماض مجيد .

وقد أقبل شاعرنا البارودى على هذا التراث بموهبته الفذة و بنفسه المتفتحة إقبالا مدركاً وتمثله تمثلا واعياً ، وأتيحت له ظروف مارس فيها الحياة العامة ممارسة عميقة شاملة ، ومن هنا انطلق فى تجاربه الشعرية ، فاستطاع أن يقول الشعر الرائع فى الحروب والوقائع حين خالطها وخاض غمارها ، وأن يمجد الثورة والثائرين حين انفعل بأحداث الثورة العرابية ، وقد كان أحد أقطابها ، انفعالا صادقاً ، وأن يصف اختباراته المريرة التى أعقبت الثورة من سجن ونفى وتشريد .

هذا فى المجال العام ، أما فى المجال الخاص ، فقد أبدع البارودى فى تصوير بواعثه ولواعجه وأحاسيسه ، فى الحب والشوق والحنين ، ولم يكن شعره هنا ليتدنى عن مستوى شعره هناك عمقَ تجربة وصدق وجدان وروعة بيان .

وقد قدر لتجربة البارودى الضخمة هذه أن تنجح ، لأنه كان يتمتع بموهبة منفردة استطاعت أن تشق طريقها إلى الإبداع ، وأن تتلمس وسيلتها التعبيرية الموحية الناصعة فيما خلفه العرب من تراث شعرى خصب رائع .

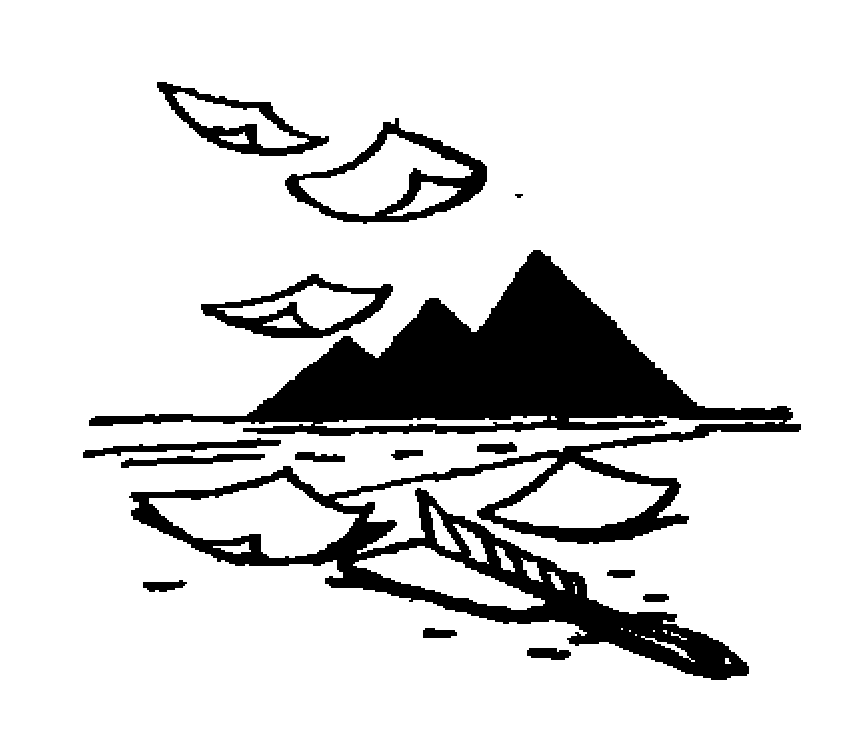
و بذا غدا رمزاً لحركة البعث فى أدبنا الحديث ، و برهاناً على أن الموهبة الصادقة تستطيع أن تحقق وجودها وأن تنتزع الإعجاب والتقدير من الأجيال المتعاقبة ، دون أن تكون واعية بمثل ما يتردد على أسماعنا اليوم ، من حديث فى نظريات الشعر وقوالبه وأشكاله ومضامينه ، وغير ذلك مما يتلهى به النظامون ، ومما ليس من شأنه أن يقف عثرة تعترض سبيل الموهبة المستحصدة والشاعرية الأصيلة فى إنتاج شعر خالد .

وشاعرنا أيضاً ، شأنه فى ذلك شأن كل شاعر كبير ، فى كل عصر وعند كل أمة يقف دليلا واضحاً على أنه ليس هناك قديم وحديث فى الشعر ، بل هنالك شعر رائع يقال فى كل زمن ويصدر عن أية بيئة ، إذا توافرت لقائله الموهبة المبدعة ، والأداة الطيعة المعبرة ، وأتيح له الاتصال الوثيق المتمثل بتراثه العربى ، والتمرس بتجارب الحياة تمرساً عميقاً مثمراً .

أيها الحفل الكريم :

لم أرد لكلمتى هذه أن تكون دراسة لشعر البارودى ، والشاعر الكبير لا تحيط بشاعريته كلمات ولا تكشف عن أبعاد عبقريته خطبة ، وإنما هى تحية أرفعها و إخوانى من أعضاء مؤتمر أدباء العرب ، إلى روح البارودى الخالد ، اعترافاً بفضله على نهضتنا الحديثة و بما قدمه من أياد لقوميتنا العربية .

محمد يوسف نجم



البارودى حامل لواء الحرّية

للدكتور محيى الدين صابر

من أعضاء الوفد السودانى

البارودى أب من آباء الحرية العربية على مدى التاريخ ؛ حمل لواء هذه الحرية فى أكثر من ميدان : حملها جنديًّا بسيفه ، وحملها مناضلاً بإيمانه ، وحملها مفكراً بقلمه . .

كان يزامله جنود ، ويزامله مناضلون ، ولكنه كان وحده شاعراً . . شاعراً للعرب . . كلهم أجمعين .

إن البارودى بعث مجد الأدب العربى ، وفجّر حيويته ، ومد طاقاته التعبيرية ، فعل كل ذلك ، فوضع أساس الحرية العربية .

إن البارودى الذى عاشت فى دمه عبقرية الكلمة العربية ، عكف على مواردها الأولى ، ينهَل منها ، فجلّى الأدب العربى فى عصر فتوته وقوته ،

ودفع بهذه القدرة الأدائية ، للنهضات القومية ، وللحركات الوطنية التى كانت تتحرك فى ضمير الأمة العربية فى كل مكان .

إن البارودى ، صنع هذا ، فى وقت كانت حاجة الأمة العربية إلى البيان ضرورة لازمة للتعبير المباشر عن التحركات الاجتماعية والسياسية ، إن عبقرية البارودى تكمن فى الاستجابة الفنية لهذه الحاجة .

ودور البارودى : فى الحرية العربية ، هو أنه أول من طوّع العربية السليمة القوية لمعركة الحياة الجديدة فلم تكن العربية التى قتلها العهد التركى قادرة أن تفى بمطالب الأفكار الجديدة ... وقيمة أدب البارودى ، هى أنه أدب معركة ، وأدب نهضة ، ويزيد فى هذه القيمة أن حياة البارودى نفسها كانت حياة معركة وحياة نهضة ، فصورة حياته ، تلتقى مع صورة فكره .

إنى باسم الأدباء السودانيين وباسم وفد الأدباء السودانى فى مؤتمر الأدباء الثالث . نحيي ذكرى شاعرنا الخالد البارودى . نحيي ذكراه فناناً ومفكراً وجندياً ومناضلاً وطنياً .

والبارودى وإن مدّ فى ضفاف النيل أنغامه ، فقد مدها أيضاً فى كل بقعة فيها للعروبة تراث ، فهو شاعر العرب كلهم أجمعين .

محيي الدين صابر

الفهـــرس

